



محمد علي أبو حمدة
ماجستير في النقد الأدبي

من أساليب البيان في القرآن الكريم

مكتبة الرسالة الحديثة
عمان

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

من أساليب البيان في القرآن الكريم

تأليف

محمد علي أبو حمدة

ماجستير في النقد الأدبي / الجامعة الأمريكية ببيروت

(عضو هيئة تدريس بكلية الآداب / الجامعة الاردنية)

مكتبة الرسالة الحديثة

عمّان

الطبعة الثانية
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
١٩٨٣ — ١٤٠٣

الباب الاول

البيان واللغة

ما نكون في شأن ، ولا نخوض في أمر ، ولا نحامي عن فكرة ، او
ننتصر لها ، ونحمل الناس على ان يروا رأينا ، ويسلموا بوجهة نظرنا ،
ووجهة اسبابنا ، الا كان البيان هو اداتنا والسبيل .

والبيان : علم يعرف به ايراد المعنى الواحد ، بطرق مختلفة ، في وضوح
الدلالة عليه^(١) ، وها نحن نعطي موضوع التعبير الواحد لجميع الطلبة ،
وليكن وصف الربيع مثلا . ومع تجانس البيئة وتشابه المنظورات في
فصل الربيع ، الا ان أحدا من هؤلاء لا يكتب موضوعا كالأخر ، بل
تفاوت الموضوعات من حيث الحسن او التقصير . ان موضوع التفاوت
هو الميدان الذي يتحرك فيه البيان . وهو التفاوت عبر عنه الرسول صلى
الله عليه وسلم : « انكم تختصمون الي ، ولعل بعضكم يكون الحن في
حجته من بعض فأحكم له على نحو ما اسمع منه ، فمن حكمت له من حق
أخيه بشيء فلا يأخذه ، فانما أقطع له قطعة من النار » . وهو التفاوت
كان يعنيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه
حين يقول : « خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد »^(٢) .

والبيان : « هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك امر وراء النحو
والاعراب . الا ترى ان النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ، ويعلم
مواقع اعرابه ، ومع ذلك فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة »^(٣) .

(١) القزويني ، تلخيص المفتاح ، ص ٢١٨ . يحسن أن نستذكر في هذا الصدد قصة تعبير
رؤيا ابي جعفر المنصور وقد رأى أسنانه قد سقطت فأخبره المعبر الاول ان أمير المؤمنين
سيكون أكثر أهل بيته هما وحزنا فاستاء منه وقول المعبر الآخر : ابشر يا أمير المؤمنين
فانك ستكون أطول أهل بيتك عمرا ، فسري عنه . ووضح تفاوت التعبير عن المعنى
الواحد وتفاوت ذلك من حيث الحسن وعدمه .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٣٩ .

(٣) ضياء الدين بن الاثير : المثل السائر ج ١ ص ٤٠ .

وعلم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة الفقه للاحكام وأدلة الاحكام^(٤) ، وهو الذي يعطي العلوم منازلها ، ويبين مراتبها ، ويكشف عن صورها ، ويجني صنوف ثمارها ، ويدل على سرائرها ، ويبرز مكنون ضمائرها . وبه أبان الله تعالى الانسان من سائر الحيوان^(٥) ، ونبه فيه على عظيم الامتنان^(٦) ، فقال عز من قائل : (الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان) الرحمن ١-٤ . وما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر بشيء من العلوم غير البيان : « أنا أفصح من نطق الضاد »^(٧) . وقال صلى الله عليه وسلم « . . . أوتيت جوامع الكلم »^(٨) فلو لم تكن هذه الفضيلة من أعلى الفضائل درجة - كما يقول ضياء الدين بن الاثير - لما اتصل الاعجاز بها دون غيرها ، فان كتاب الله تعالى نزل عليها ، ولم ينزل بمعجز من مسائل الحساب ، ولا من مسائل الطب ولا غير ذلك من العلوم^(٩) .

وبين من قول ابن الاثير ان الاعجاز سيبقى في البيان دون غيره وان ثبت ان هناك اشارات علمية او عددية معجزة . وهو ما ذهب اليه ابن

(٤) المصدر السابق ص ٣٥ .

(٥) يقول شهاب الدين الخفاجي : قد ثبت ان الفرق الواضح بين الحيوان الناطق والصابغ هو النطق وبه وقع التمييز في الحد المنسوب الى الحكيم (أرسطو) . سر الفصاحة ص ٦٣ . وقال اصحاب المنطق : حد الانسان الحي الناطق . انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٧ وابن رشيق العمدة ج ١ ص ٢٤٢ .

(٦) الامام عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة ص ٢ . وكان اليونان يسمون الخطيب بليغا لان مستمعيه كانوا يترسبون بكل فنون الاقناع . انظر : The Lively Rhetoric n. 5 . ووضح اشارة القرآن الكريم الى ان الانسان هو المقصود بالاعجاز البياني .

(٧) وفي حديث مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصح العرب ، بيد اني من قريش » انظر الخفاجي : سر الفصاحة . ص ٦٠ .

(٨) قال صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي . كان كل نبي يبعث في فوذه وبعث لكل أحمر واسود ، وأحلت لي الفنائم ، وجعلت لي الارض طيبة وطهورا ، ونصرت بالعرب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت جوامع الكلم » . المثل السائر ج ٤ ص ٤-٥ . وقال صلى الله عليه وسلم تعليقا على قول لعمر بن الاثم في الزبرقان : « ان من البيان لسحرا » العمدة ج ١ ص ٢٥٤ .

(٩) المثل السائر ج ٤ ص ٥ .

ناقيا البغدادي حيث قال بعد حديثه عن حال العرب : « ٠٠٠ مع وقوع التحدي لهم بما لا يخرج عن شأنهم (١٠) » .

ان الاعجاز هو البيان ولا ينبغي لأحد ان يقيم الحجة على الناس من غير هذا الطريق . ومن هنا نتبين وعورة الطريق الذي يسلكه بعض الذين يشددون على أنفسهم في تفسير القرآن الكريم عصريا كما فعل د . مصطفى محمود او عدديا كمثّل ما فعل عبد الرزاق نوفل في « الاعجاز العددي للقرآن الكريم » ناهيك عن أن هذه الحجة لن تطال المعاصرين للرسالة الاسلامية على عهد نزول الوحي عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعدهم عن التفسيرات العلمية او العديدة ولان مجال التحدي في غير الذي قد مئروه وخذقوه وعرفوا به .

والبيان : هو ترتيب المعاني في النفس ، والانتظام فيها على قضية العقل (١١) ، ومن ثم فهو التغلغل الى دقائق اللغة واسرارها ، علاوة على التحفي بكل ما يفتق عنه العقل البشري من علوم ، ومعارف ، ومناهج بحث ، وطرائق استدلال . لذا فهو عملية نامية Dynamic تعيش اللغة بكل ابعادها ، وما يجد فيها من اضافة وتعميق ومفاهيم ، مع متابعة القضايا العقلية ، واستيعاب العصر ، ومعطياته الثقافية (١٢) . وبالجملة ، فان صاحب هذه الصناعة - كما يقول ضياء الدين بن الاثير - يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون ، حتى انه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس ، والى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة ، فما ظنك بما فوق هذا ؟ والسبب في ذلك انه مؤهل بأن يهيم في كل واد ، فيحتاج ان يتعلق بكل فن (١٣) . ويقول : والصحيح

(١٠) الجمان في تشبيهات القرآن ص ٢٤٠ .

(١١) أسرار البلاغة ص ٤ .

(١٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم : الحكمة ضالة المؤمن ، فهو احق بها اذا وجدها

(المثل السائر ج ١ ص ١٠٠) . ويقول ديكرت في هذا الصدد : أنه لا جرم ان تكون

الحكمة هي القوت الصحيح للقلوب ، فان الذهن هو اهم جزء فينا ، وطلب الحكمة

لا بد بالضرورة من أن يكون ههنا الاكبر (أنظر : مشكلة الفلسفة ص ٧) .

(١٣) المثل السائر ج ١ ص ٧٣ .

ان باب الابتداع للمعاني مفتوح الى يوم القيامة ، ومن الذي يحجر على
الخواطر (١٤) . ويقول الجاحظ : « البيان من نتاج العلم » (١٥) .

أما كيف تترتب المعاني في النفس ، وتنظم على قضية العقل ، فذلك
في الالغاز المستسرة ، التي تستعصي على الكشف ، وتدق عن العلم .
يقول الدكتور خالص جلبي كنجو : « كيف يتم التفكير والادراك والتخيل
وتركيب الكلمات والجمل والافكار وربط كل هذا بعضه الى بعض بحيث
يخرج الكلام منسجما متوازنا يهدف الى معنى ، ان هذا يقف الطب حتى
الآن عن الاجابة عليه . ثم كيف يستخدم الانسان الاسماء حتى يتفاهم
مع غيره على الشيء الذي يريده ايضا معجزة من المعجزات . ثم كيف ينتقل
هذا الامر من عالم الماديات المحسوسة الى عالم الروح والفكر حيث يتم
التعبير بالاشياء المجردة ؟ الحق يقال اننا درسنا عمومات الطب من اوله
الى آخره ، ومع ذلك لم نستطع حتى الآن ان نفقه هذه الاسرار » (١٦) .

ولأمر ما شاء الله تعالى أن تكون معجزة القرآن الكريم بيانية باقية
بقاء النيرين ، حتى يرث الله الارض ومن عليها . قال تعالى في محكم
التنزيل : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ،
وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » هود : ١٣ . وقوله
تعالى : مفتريات ، اقرار لهم بالبراعة اللغوية دون حصول العلم بالحقائق
والمقاصد ، ومن ثم حبطت محاولاتهم لان البيان هو وحدة اللغة والعلم ،
وحدة لا انفصام فيها ، تماما كما يلتقي الشعور والقلب والعقل في
الشخصية الانسانية ، ومن ثم تكون الامانة والتكليف من خلال وحدة
الرؤية في ذلك كله . قال تعالى : « ان السمع والبصر والفؤاد ، كل اولئك
كان عنه مسؤولا » الاسراء : ٣٦ .

وقال تعالى : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة
من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين » البقرة : ٢٣ .

(١٤) المثل السائر ج ٣ ص ٢١٩ .

(١٥) البيان والتبيين ط السندوبي ج ١ ص ٧٨ .

(١٦) الطب في محراب الايمان ج ١ ص ١٤٢ .

وقال تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » الاسراء : ٨٨ .

وها قد مر اربعة عشر قرنا ولم يذر لأي كتاب قرن في منافسة القرآن الكريم او أن يخمد له ذكرا حتى كارل ماركس الذي يبشر الملحدون بفكره مات وهو يعتبر القرآن الكريم منافسه الاكبر* .

واذا كان هذا الكتاب المعجز الناطق بالحق قد اذعنت له اعناق العرب وهم اهل لسن وفصاحة ، حتى ان معلقاتهم لا تزال في الفحولة التي تعجز المتأخرين ، وان قد بلغ الامر من رهافة حسهم وتحفيهم بالنصوص والروائع ان كانوا يولون لنبوغ شاعر(١٧) ، وحد ترك امور معاشهم للموازنة بين الشعراء في أسواقهم العامة في عكاظ وذو المجاز والمشقر(١٨) ، وفي مواسمهم ومنافراتهم ، فانه اليوم - ومع غياب الدولة الاسلامية المركزية - وفي وقت تجهز فيه القوى العالمية على آخر مقدرات الامة الاسلامية وهو امر دينها(١٩) ، ويحارب على مستوى الحكومات الاستعمارية والمؤسسات والافراد ، ويمول على ذلك جنود ظاهرون ومستترون(٢٠) ، فانه يؤلف كل

Business Week, April 4, 1977, P. 15. ★

(١٧) ابن رشق القيرواني ، العمدة ج ١ ص ٦٥ ومصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الاسد ص ١٠٩ .

(١٨) انظر اسواق العرب في الجاهلية في تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٧٠ .

(١٩) نشرت صحيفة الرأي الاردنية في عدد السبت ٢٩/٥/٧٦م تحقيقا حول الجلسة الصاخبة التي عقدها مجلس الشعب المصري للتصويت : خمر او لا خمر . وهذا يدل على ضياع تطبيق الحدود الاسلامية في بلد كان ابن أمير المؤمنين وابن والي مصر يجلدان على شرب الخمر .

(٢٠) قال جلدستون رئيس الوزارة البريطانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : « ما دام هذا القرآن موجودا فلن نستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي في أمان » . نقلا عن كتاب (جذور البلاء) للمرحوم عبد الله التل ص ٢٠٣ .

- اكتشفت حكومة المغرب العربي آلاف النسخ المزورة من المصحف الشريف وفيه عدد من الآيات المحرفة لتلائم أهداف اليهود . واكتشفت مؤامرة يهودية أخرى في شيكاغو حين نشرت دار ديفز اليهودية ما أسمته « بالقرآن الصغير » أوجزت فيه القرآن على هواها . وتنبهت القاهرة والازهر الشريف لهذه المؤامرة الخسيسة ، وسارعت الجمعيات الاسلامية في المناطق التي وزع فيها القرآن المزيف الى جمعه وحرقه (انظر : جذور البلاء ص ٢١١) .

يوم قلوبنا ما عمرتها الحضارة المادية . ان الطواير الجرامة التي تعلن
اسلامها على ملا من اقوامها في العواصم الغربية والشرقية على السواء ،
لهي الدليل العملي على قوة البيان القرآني ، ومقدرته على مخاطبة العقل
وتحريك الوجدان والمشاعر .

اما الامثلة على بهر فصحاء العرب ببيان القرآن ، ومعجزته العقلية ،
فهي كثيرة ، ومبثوثة في كتب السير والبلاغة . وقد آمن لسماع القرآن
الكریم نفر كثير ، منهم : ابو ذر الغفاري ، وأخوه أنيس ، وجبير بن
مطعم ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم . ويكفي ان نشير الى قصة الوليد
ابن المغيرة مع القرآن الكريم وذلك بصفته أحد الفصحاء الذين كان لهم
وژن في معرفة اسرار الكلم - كما يرويها ابن هشام - : اجتمع نفر الى
الوليد بن المغيرة في الموسم اذ قال لهم : « يا معشر قريش ، انه قد حضر
هذا الموسم ، وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر
صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم
بعضكم ، ويرد قولكم بعضه بعضا ، قالوا : فانت يا أبا عبد شمس ،
فقل وأقم لنا رأيا نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول
كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزممة
الكاهن ولا سبعة ، قالوا : فنقول مجنون ، قال : فما هو بمجنون . لقد رأينا
الجنون وعرفناه ، فما هو بخفقه ، ولا تخالجه ، ولا وسوسته ، قالوا :
فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه
وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر ،
قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا
عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ان لقوله لحلاوة ،
وان اصله لعذق ، وان فرعه لجناة (٢١) . وان ليبيدا بن ربيعة العامري ،
أحد شعراء المعلقات ، كان عمر بن الخطاب ارسل اليه يطلب منه ما قاله

(٢١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٠ ، دلائل الاعجاز ص ٢٥٢ وفي قول آخر : ان له
لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمندق وما هو بقول البشر ،
الزمزمة : الكلام الخفي لا يسمع . العذق : أصل النخلة .

في الاسلام من الشعر ، فانطلق الى بيته فكتب سورة البقرة في صحيفة ،
ثم أتى بها فقال : أبدلني الله هذه في الاسلام مكان الشعر (٢٢) .

وفي العصور الوسيطة كان للبيان القرآني قدرة عجيبة على غزو
القلوب وعمارتهما ونشر الاسلام في وقت كانت دول الاسلام مجزأة
ضعيفة . ويكفي ان نشير في هذا الصدد الى اعتناق المغول للاسلام في وقت
كانوا فيه في أوج انتصاراتهم وأمجادهم العسكرية . وهكذا تحول من
كان يخطط للقضاء على البيان الاسلامي وتقويضه ليصبح الحامي عنه
بله الناشر له . وهذا المستشرق الانجليزي توماس ارنولد في كتابه «الدعوة
الاسلامية» (٢٣) يأتي على ذكر بعض ذلك ، يقول : « كان اول مغولي اعتنق
الاسلام بركة خان الذي يروي ابو الغازي : « انه دخل الاسلام بعد
اعتلائه العرش ، اذ تقابل مع قافلة من بخارى ، وانفرد باثنين من
رجالها ، وسألهما عن الدين الاسلامي فشرحا له ما ارضى نفسه فأسلم
ثم أفضى بذلك لأخيه الأصغر الذي أسلم هو الآخر » (٢٤) . وفي سنة
١٢٩٥ م اعتنق «قازان» سابع الخانات الاسلام وجعله دين الدولة في
فارس ، وكان هذا قد نشأ بوذيا وبني عدة معابد للبوذية في خراسان ،
وبعد اسلامه غدا شديد الحماسة للدين وكان يفد اليه العلماء والفقهاء
من كل مكان يجالسهم ويستمع الى حديثهم (٢٥) . أما طغلق تيمور خان
فيقال ان اسلامه كان على يد شيخ فاضل من بخارى اسمه جمال الدين ،
وتفصيل ذلك ان هذا الشيخ اجتاز مع بعض المسافرين أرضا اختصها
الامير لنفسه يقضي فيها فراغه في الصيد والقنص ، فلما علم بمرورهم ،
وكان ذلك مجظورا غضب وامر بشد وثاقهم واحضارهم اليه وسألهم
عما دفعهم الى المرور من هنا فقال الشيخ : انهم قوم غرباء ولا يعلمون
عن حرمة تلك الارض ، فسألهم عن جنسيتهم فقالوا : انهم فرس . فصاح
بهم قائلا : ان الكلاب افضل من الفرس . فقال الشيخ : « صحيح لو لم

(٢٢) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٣٥ . وانظر : ابن حجة الحموي خزنة الادب ج ٢
ص ٢١٥ .

(٢٣) ترجم منه مقتبسات بعنوان « دين الناس كافة » محمد خالد حسين .

(٢٤) دين الناس كافة ص ١٣ .

(٢٥) نفس المصدر ص ١٦ .

نكن مؤمنين » . فدهش لما سمع ، وتساءل عن معنى مؤمنين . فقالوا :
اننا نؤمن بالاسلام . واخذ يشرح حقائق الدين بحماسة حتى استحال
قلب الامير الى أرق من الشمع ، ووصف الشيخ الكفر وصفا جعله ينفر
منه ، فأسلم . وبعد اعتلائه العرش اعلن اسلامه وتبعه قوم من
المغول (٢٦) . ان الاسلام - كما يقول توماس ارنولد - قد كسب اعظم انتصاراته
في اماكن وازمان كان سلطانه السياسي اضعف ما يكون (٢٧) .

ولا نظن ان السلطان السياسي هو اقوى وسط هذه المنافسات
العلمية العملاقة منه في العهود الوسيطة ، والمتدبر لكثرة (٢٨) وضعت
في المسلمين الغربيين ومواقف التحولات في حياتهم - ومعظمهم ينتمي الى
بيئات علمية وثقافية - يستطيع ان يظفر بالكثير من أسرار البيان القرآني
وقدرته على غزو القلوب وعمارة العقول .

عالمية البيان :

اذا كان البيان هو العلم الذي يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق
مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، « والذي لولا تحفيه بالعلوم ، وعنايته بها ،
وتصويره اياها لبقيت كامنة مستورة ، ولما استنبت لها يد الدهر
صورة ، ولا ستمر السرار بأهلتها ، واستولى الخفاء على جملتها » (٢٩) ،
استتبع ان يكون ذلك عالميا بأي لغة كانت ، وفي أي وسط يكون . والواقع
ان البيان لغة عالمية ، اذ ان كل عارف بأسرار الكلام - كما يقول ضياء
الدين بن الاثير - من أي لغة كانت من اللغات يعلم ان اخراج المعاني في
الفاظ حسنة رائقة ، يلذها السمع ، ولا ينبو عنها الطبع ، خير من
اخراجها في الفاظ قبيحة مستكرهة ، ينبو عنها السمع (٣٠) . ويقول ابو

(٢٦) دين الناس كافة ص ١٧ .

(٢٧) نفس المصدر ص ٣٠ .

(٢٨) من ذلك كتاب : « لماذا أسلمنا » وهو مجموعة مقالات لشعبة من رجال الفكر في مختلف
الاقطار عن سبب اعتناقهم الاسلام / مؤسسة مكة للطباعة والاعلام .

(٢٩) دلائل الاعجاز ص ٤ .

(٣٠) المثل السائر ج ١ ص ١٢٠ .

عثمان الجاحظ : « البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع الى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل ، لان مدار الامر والغاية التي يجري اليها القائل والسامع ، انما هو الفهم والافهام ، فبأي شيء بلغت الافهام واوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع (٣١) . ولهذا صرح لأبي عثمان الجاحظ ان يأتي على منطق أرسطو بالقول : « الا ترى ان كنا بالمنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الامصار وبلغاء العرب لما فهموا اكثره » (٣٢) . وصرح لمؤلف كآبي محمد عبد الله بن قتيبة ان يتحدى المناطقة ببيان الاسلام اذ يقول : « ولو ان مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمح دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم ، او يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ليقن ان للعرب الحكمة وفصل الخطاب » (٣٣) .

ان من مهام علم البيان : وضوح الدلالة ، وصواب الاشارة ، وتصحيح الاقسام ، وحسن الترتيب والنظام ، والابداع في التشبيه والتمثيل ، والاجمال ثم التفصيل ، ووضع الفصل والوصل موضعهما ، وتوفية الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما (٣٤) ، وهذه موجودة في كل لغة (٣٥) ، وموافية على أي لسان .

(٣١) البيان والتبيين ج ١ ص ٧٦ .

(٣٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ١ ص ٩٠ .

(٣٣) ابن قتيبة ، ادب الكاتب ، ص ٥ المقدمة .

(٣٤) دلائل الاعجاز ص ٤٠ ويقول الجاحظ : « وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الاشارة ، وحسن الاختيار ، ودقة المدخل ، يكون اظهار المعنى » البيان والتبيين ج ١ ص ٧٣ .

(٣٥) جاء في تعريف البلاغة انها اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ، منها ما يكون في السكون ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون خطبا ، وربما كانت رسائل : « كتاب الصناعتين » ج ١ ص ٢٠ . وواضح ان هذه امور انسانية لا تختص بلغة دون لغة .

النظام اللغوي :

دلت الدراسات على ان جميع لغات البشر لها نظام متشابه ، فكل اللغات تتكون من جمل تتكون بدورها من كلمات . وكلها يمكن تركيب جمل منها أكبر من خلال تضمين بعضها ببعض ، وكلها لها علاقات نحوية . والكلمات في كل اللغات تتكون من أصوات مميزة وهذه الاصوات لها موريات ودلالات معينة . ان التشابه بين اللغات يميز لغة الانسان عن لغات الحيوان ، وكلها تتصل بالتركيب الحياتي للانسان (٣٦) . ان هذه العالمية في اللغة مردها الى تركيب الدماغ . فكما ترث الطيور المقدرة على الطيران والاسماك المقدرة على السباحة ، فان الناس يرثون المقدرة على استخدام اللغة بطريقة تميز نوعهم (٣٧) . ورغم المحاولات المستمرة - يقول د. كارل ديلر - لم يستطع أحد تعليم لغة البشر الى الحيوانات . انه ليس على حجم دماغ الانسان يتوقف تعلم اللغة ، ولكن على تنظيم دماغه . ان تعلم اللغة يعتمد عمليات حياتية ، وان تطور اللغة عند كل طفل هي ذاتها رغم فوارق اللغة والثقافة والوسط . صحيح ان بعض الاطفال يشقون لغات قبل غيرهم ، ولكن طريقة النمو هي ذاتها لدى جميع الاطفال وحتى للمعوقين منهم . على ان أهم ظاهرة تبقى تستلفت النظر بشأن اللغة ، هي - كما يقول ديلر - عالميتها (٣٨) . ان اللغة الانسانية - اي لغة - هي نظام متكامل ومعقد كما هو العقل البشري . لذا ، فان الوقوف على اسرار اللغة ، ومباشرة نصوصها ، وتعلم طرائقها في البيان والتبيين ، لهو من التعليم قلبه (٣٩) . واذ يكون البيان تحفيا بالعلوم جميعا وبسائر المعطيات الحضارية والثقافية وكل ما تفتق عنه الذهن البشري من مناهج في التفكير واساليب في الاستدلال وطرائق في المعرفة ، فان وقوفنا على أسرار لغتنا ، ومباشرة نصوصها وتعلم طرائقها

Generative Grammar, p. 27. (٣٦)

Ibid., p. 7. (٣٧)

Ibid., p. 77. (٣٨)

Effective Writing, p. 1. (٣٩)

في التفكير لهُو تَأْصِيلُ لِعَالَمِيَةِ الْبَيَانِ ، لَانِ اللُّغَةُ ظَاهِرَةٌ ذَهْنِيَّةٌ (٤٠) . وَمِنْ
ثُمَّ كَانَ التَّنْوِيهِ بِاللُّغَةِ الْإِمَامِ وَآثَرُهَا عَلَى الْإِصَالَةِ الْفِكْرِيَّةِ ، بَلْ وَطَرِيقَةُ
التَّفَكُّيرِ . اِنْ الَّذِي يَسِيرُ لُغَتَهُ وَيَتَغَلَّغِلُ فِيهَا عَلَى الدَّقَائِقِ وَالْإِسْرَارِ لهُوَ
فِي أَفْقِ عَلَوِيٍّ يَسْتَشْرِفُ مَعَهُ الْعَوَالِمَ الْآخَرَى عَلَى نَحْوِ أَفْضَلٍ مِنْهُ لَوْ بَقِيَ
عَلَى الْعَتَبَاتِ الْخَارِجِيَّةِ لِمَسْطَحٍ مِنَ اللُّغَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ . وَلَا يَعْنِي هَذَا إِنَّا
نَقْلُ مِنْ أَهْمِيَّةٍ تَعْلَمُ اللُّغَاتِ الْإِجْنَبِيَّةَ ، وَلَكِنْ يَعْنِي اِنْ يَكُونُ تَعْلَمُ اللُّغَاتِ
الْإِجْنَبِيَّةَ بَعْدَ ثِقَافِ اللُّغَةِ الْإِمَامِ ، وَلَيْسَ عَلَى حَسَابِهَا .

اِنْ فِي كُلِّ لُغَةٍ كَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِي - دَقَائِقُ وَإِسْرَارُ
طَرِيقِ الْعِلْمِ بِهَا الرُّوِيَّةُ وَالْفِكْرُ ، وَلَطَائِفُ مُسْتَقَافَا الْعَقْلِ ، وَخَصَائِصُ مَعَانٍ
يَنْفَرِدُ بِهَا قَوْمٌ قَدْ هَدَوْا إِلَيْهَا ، وَدَلُّوا عَلَيْهَا ، وَكَشَفَ لَهُمْ عَنْهَا ، وَرَفَعَتْ
الْحُجُبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا ، وَإِنَّمَا السَّبَبُ فِي اِنْ عَرَضَتْ الْمَزِيَّةُ فِي الْكَلَامِ ،
وَوَجِبَ اِنْ يَفْضَلُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَإِنْ يَبْعُدُ الشَّأْوُ فِي ذَلِكَ ، وَتَمْتَدُّ الْغَايَةُ
وَيَعْلُو الْمَرْتَقَى ، وَيَعَزُّ الْمَطْلَبُ (٤١) . زَوْي عَنْ أَبْنِ الْإِنْبَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ : رَكِبَ
الْكَنْدِيُّ (يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ) الْمُتَفَلِّسُ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ (ثَعْلَبِ) وَقَالَ لَهُ :
إِنِّي لِأَجِدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ حَشْوًا . فَقَالَ لَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ : فِي أَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدْتَ
ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : أَجِدُ الْعَرَبَ يَقُولُونَ : عَبْدُ اللَّهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : اِنْ عَبْدُ
اللَّهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : اِنْ عَبْدُ اللَّهِ لِقَائِمٌ . فَالْإِلْفَافُ مُكَرَّرٌ وَالْمَعْنَى
وَاحِدٌ . فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : بَلِ الْمَعْنَى مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ الْإِلْفَافِ . فَقَوْلُهُمْ :
عَبْدُ اللَّهِ قَائِمٌ : أَخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ . وَقَوْلُهُمْ : اِنْ عَبْدُ اللَّهِ قَائِمٌ : جَوَابٌ عَنْ
سُؤَالٍ ، وَقَوْلُهُمْ : اِنْ عَبْدُ اللَّهِ لِقَائِمٌ - جَوَابٌ أَنْكَارٌ مِنْكَرٍ قِيَامِهِ ، فَقَدْ
تَكَرَّرَتْ الْإِلْفَافُ لِتَكَرُّرِ الْمَعْنَى . فَمَا أَحَارَ الْمُتَفَلِّسُ جَوَابًا (٤٢) . وَإِذَا كَانَ
مِثْلُ هَذَا يَغْمُضُ عَلَى فِيلْسُوفٍ عَرَبِيٍّ ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ تَبْقَى تَلَحُّ عَلَى كُلِّ مُتَكَلِّمٍ
بَلِغَتِهِ اِنْ يَسِيرُ أَغْوَارَهَا ، وَإِنْ يَقِفُ عَلَى مَقَاصِدِهَا فِي الْقَوْلِ ، وَطَرَائِقُهَا
فِي التَّعْبِيرِ . اِنْ مِنْ أَهَمِّ تَعْقِيدَاتِ اللُّغَةِ - أَيِ لُغَةٍ - أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ نَمَطٌ
وَاحِدٌ مِنَ الْكِتَابَةِ يَلَاثِمُ سَائِرَ الْمَوْضُوعَاتِ فِي جَمِيعِ الْمُسْتَوِيَّاتِ ، بَلْ اِنْ

(٤٠) Generative Grammar, p. 35.

(٤١) دلائل الإعجاز ص ٢٥ .

(٤٢) نفس المصدر ص ٢٠٦ .

هناك تفاوتاً في استعمالاتها (٤٣) . وان ذلك التفاوت ليتضح في درجات التحفظ في مراعاة المقام Level of formality ، وفي المفردات Vocabulary وفي اللهجة Tone وفي عرض التفصيلات وفي انماط الجمل ، وربما في طرائق الترتيب واساليب التطوير ، ومع ذلك فان كلا منها بمفرده هو على درجة من الجودة عالية (٤٤) . وخير ما يمثل ذلك كله القرآن الكريم . فالقرآن أفق متسق من حيث الجودة الفنية ، ومع ذلك يجد المرء السور والآيات المكية غيرها السور والآيات المدنية . ففي حين تميل الآيات المكية الى انقصر والوقع الموسيقي الحاد لتلائم جو الزجر والردع والتقريع ورسم المتقابلات بين مواقف أهل الجنة وأهل النار نجد في المدني من الآيات إطالة في التفصيلات ، وهدوا في النغمات . ففي المكي نجد قوله تعالى من سورة المدثر : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر . فاذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير . ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع ان أزيد . كلا ، انه كان لآياتنا عنيدا . سارهاقه صعودا . انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر » المدثر : ١ - ٢٨ .

وتطول المواقف في السور المدنية ، « يؤثر طول عرضها في الوجدان، ويدعو المشاهدين الى ان يشاركوا المؤمنين في عبادتهم وصفاتهم المعروضة على الانظار » (٤٥) من ذلك قوله تعالى : (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس

(٤٣) Effective Writing, p. 1.

(٤٤) Ibid., p. 3. وفي هذا الصدد يستذكر المرء اندفاعه ونستون تشرتشل رئيس

وزراء بريطانيا في جعل اللغة الانجليزية لغة العالم من خلال قصرها على عدد من

الالفاظ يسهل حفظها وتداولها وصعوبة هذا المرام .

(٤٥) سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص ١١٠ .

وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون (سورة البقرة : ١٦٤ •

وفي حين تبدأ الآيات المكية بقوله تعالى : يا أيها الناس ، نجد الآيات المدنية تبدأ بقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا • ومع التفاوت في ذلك نجد الآيات جميعا على ذات الدرجة من التجويد الفني والافق العالي • وكمثل على الدقائق والاسرار في اللغة يكفي ان نشير الى ما اورده مؤلف « شرح العقيدة الطحاوية » في معرض رده على من قال ان جواب موسى عليه السلام على فرعون : وما رب العالمين ؟ بقوله (رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين) (٤٦) هو من قبيل المغالطة ، اذ ذهب بعض الناطقة الى الزعم ان فرعون سأل موسى مستفهما عن الماهية وان المسؤول عنه ، لما لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجواب ، وهذا غلط كما يقول الشارح • وانما هذا استفهام انكار وجحد ، كما دل سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحدا لله نافيا له ، لم يكن مثبتا له طالبا للعلم بماهيته • فلهذا بين لهم موسى انه معروف ، وان آياته دلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو (٤٧) •

والمتدبر لنسق الآيات يعجب ويغرب للفتة المؤلف هذه وحسن رده وقدرته على التصور الواضح • ففرعون كما تظهره الآيات يبدو الجاحد المنكر المتسخط الذي لا يسأل استفهما ولا يلقي للسمع آذانا صاغية • ومن هنا فان أسئلته لم تكن غير المشاكسة والمخالفة والعنت والخلاء • وما احسن ما تصدع به الجاحد والمنكر من ان تعدد له آثار النعمة وأعمالا هي فوق مقدور البشر ، عند ذلك تكبته وتتركه في الجو النفسي ، صدى الحق فيه يقرع أذنيه قرعا • ما نفع من تأتبه بهدوء المنطق وهو الذي يشتم ويكابر ويتصدى فهم ام لم يفهم ؟ واذا فلا مغالطة ولكنها البلاغة تراد والفصاحة تقصد ، واهل البيان وشيوخ اللغة يعلمون أثر هذا

(٤٦) سورة الشعراء (٢٣ ، ٢٤) •

(٤٧) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٧ •

الخطاب في نفوس تغلفها الغلظة وزان عليها ما اجتريحت من فعائل ومحدثات (٤٨) .

أهل اللغة واصحاب العربية يعلمون ان لو اراد السائل المستنكر والمعاند والمكابر وهو فرعون في هذه الحالة ان يبغي الى الاستبيان والتثبت طريقا لقال : ومن رب العالمين ، على التوقير والتعظيم واستجلاء الماهية واعطاء من له صفة الربوبية بعض ما يليق بصفات ، ولكنه عدل عن ذلك ليسأل مستنكرا معاندا بصيغة تقصد الى التعمية وتجانب الوضوح . ومن ثم فان موسى عليه السلام قد رتب في منطقته ان يكون وجود رب العالمين أمرا مفروغا منه ومن ثم طفق يعدد آلاء الله وآياته السابقة الواضحات ، وبذا يكون موسى عليه السلام قد انتقل من خانة أريد له أن يقيده مكانها الى موضع يحسن فيه الهجوم والتحدي والتبكيت (٤٩) . ان هذه دقائق لا يفتن لها « الا من غلغل الفكر وأدق النظر ، ومن يرجع من طبعه الى المعية يقوى معها على الغامض ، ويصل بها الى الخفي » (٥٠) ولا يجلي المرء في لغته حتى يكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب ، ويفصل بين الاساءة والاحسان ، بل حتى يفاضل الاحسان والاحسان ويعرف طبقات المحسنين (٥١) . وهذا يحتاج الى صبر على التأمل ، ومواظبة على التدبر ، والى همة تأبى ان تقنع الا بالتمام ، وأن تربح الا بعد بلوغ الغاية (٥٢) . ومن ثم تفاضل الناس في ذلك وتباينوا ، تفاضلوا ما بين لغة ولغة ، « وفضل بعض القائلين على بعض حيث نطقوا وتكلموا ، وأخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد ، وراموا ان يعلموهم ما في نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم » (٥٣) .

(٤٨) في النقد الادبي التطبيقي ص ١٠٨-١٠٩ .

(٤٩) نفس المصدر ص ١٠٩ .

(٥٠) دلائل الاعجاز ص ٢٩٦ .

(٥١) نفس المصدر ص ٢٧ .

(٥٢) نفس المصدر والصفحة .

(٥٣) نفس المصدر ص ٣٠ .

ان تعلم اللغة مهمة تستغرق الحياة بأسرها(٥٤) ، ومع ذلك ، فان أعوام الدراسة الجامعية تمثل بعض اخصب الفترات في عملية التعلم ، لان المرء ينتقل فيها من مرحلة البلوغ الى مرحلة النضج ، ولأن الدراسة الجامعية في سائر حقول العلم والمعرفة قد اوضحت في ميسيس الحاجة الى استخدامات اللغة وتوظيفها(٥٥) . ولا يتوقع احد منك ان تغدو كاتبا مجيدا ، او خطيبا مفوها في عدد ساعات او في ايام قليلة ، « لان مالا يدرك على طول الزمان ومرور الايام ، لا يجوز ان تحيط به في ساعة من نهار »(٥٦) . واذا كان الانسان بالتعلم وبطول الاختلاف الى العلماء ومدارسه كتب الحكماء وجود لفظه ، ويحسن أدبه كما يقول ابو عثمان الجاحظ(٥٧) ، فاننا معنيون بالتمرس بالنصوص الجمالية والروائع الادبية والانماط العالية وطول تدبر لآيات كتاب الله تعالى ، المسطورة منها والمنظورة . فان وافى ذلك كله استعداد مؤات ، ونفس صافية مقبلة على ربها ، فان امر بروز ملكة الذوق ، والبصر بمواقع الحجة ، وفتح أبواب من اللطائف والاستحسان وتقدير الجودة والابداع - على النفس - نحسبه باذن الله تعالى مؤاتيا وقريبا .

(٥٤) انظر مقالة ابن خلدون في هذا الصدد المسماة باب ان العلوم الالهية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل / المقدمة .

(٥٥) The Effective Writing, p. 1.

(٥٦) ابو القاسم الأمدي : الموازنة بين الطائيين ج ١ ص ٣٩٢ .

(٥٧) البيان والتبيين ط السندوبي ج ١ ص ٨٦ .

الباب الثاني

الحجة بالقرآن الكريم

بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين ، وأيدهم بالخوارق والمعجزات التي تحج المعارضين وتكمع المعاندين . وحتى تكون الحجة آكد ، كان كل نبي يؤيد بما تقوم به الحجة على قومه في جنس ما مهروه ، وبرعوا فيه . يقول الامام عبد القاهر الجرجاني في ذلك : « انه لما كان السحر الغالب على قوم فرعون ولم يكن قد استحكم في زمان استحكامه في زمانه ، جعل تعالى معجزة موسى عليه السلام في ابطاله وتوهمينه ، ولما كان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب جعل الله تعالى معجزته في ابراء الاكمة والابرص واحياء الموتى ، ولما انتهوا الى ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وذكروا ما كان الغالب على زمانه لم يذكروا الا البلاغة والبيان والتصرف في ضروب النظم » (١) .

روى انه صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي الا أوتي ، ما مثله آمن به البشر ، وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحى به الي ، واني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ، كان كل نبي يبعث في قومه وبعثت الى كل أحمر وأسود ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الارض طيبة وطهورا ، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت جوامع الكلم » (٢) .

كانت معجزات الانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم آنية ، ترتبط بزمان معين ، ومكان معين ، ومن ثم ذهبت بذهاب الاقوام التي عاينتها ، اذ كيف ثمة تقوم الحجة على أناس هم خارج هذه المشاهد او هم تالون لها زمنا ؟ ! هذا اذا سلم النص من التزوير والتحريف والفساد والتشويه .

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٠٩ .

(٢) ابن رشيقي ، العمدة ، ج ١ ص ٢٥٤ .

فكيف اذا ضاعت النصوص ، واعتراها ما اعترى أقوامها من يد البلى ،
وكرر الجديدين ؟ !

ان هذا المنطق وحده هو الذي يتفق وأبسط قواعد النظر والاستنتاج ،
وهو المنطق أقامه الاسلام حين صرح على لسان نبيه محمد صلى الله عليه
وسلم أن كل نبي أوتي ما مثله آمن به البشر وان كل نبي كان يبعث الى
قومه خاصة ، وانه يرجو ان يكون أكثر الانبياء تابعا يوم القيامة .

ولا عبرة فيما يزعمه النصارى من عالمية رسالة عيسى عليه السلام
كما كان يركز بها بولس في أهل رومية ، ونحن نحب نبي الله عيسى
ونعتقد انه رسول حق الى بني اسرائيل خاصة (واذا قال عيسى ابن مريم
يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة
ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه احمد ٠٠٠ الآية) الصف : ٦ .
على ان النصرانية التي تشيع بين الناس اليوم ، وتساندها قوى كثيرة ،
كما يقول الشيخ محمد الغزالي ، تخالف رسالات السماء كلها ، اذ هي
فلسفة ، تجعل من عيسى الها ، او شبه اله ، يرسل الرسل ، وينزل
الكتب ، يغفر الذنوب ، ويحاسب الخلائق . (٣) وهو الرأي كان قد قرره
القاضي عبد الجبار الهمداني المتوفى سنة ٤١٥ هـ حين قال ان النصرانية
ترومت ، اذ أخذت بأخلاق الروم وتقاليدهم وآراء الفلسفة اليونانية
وعقائدها (٤) .

شاء الله تعالى ان تكون معجزة محمد صلى الله عليه وسلم بيانية
عقلية تقوم على التأمل والنظر والاستدلال والاستنتاج . وحتى تكون
المعجزة أبين ، والحجة أنصع ، كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم أميا
لا يقرأ الكتب ، ولا يعرف ما فيها ، ولا اختلف الى أهلها ، ولا اختلفوا
اليه . قال تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك

(٣) من مقال بعنوان : عالمية الرسالة / مجلة الوعي الاسلامي السنة الثالثة عشرة العدد
١٥ حزيران ١٩٧٧ م .

(٤) نشيت دلائل النبوة ج ١ ص ٨٠ وانظر الفكر الاسلامي وطرائق النقد الادبي ص ٨٧ .

إذا لارتاب المبتلون (العنكبوت : ٤٨ • وقال تعالى : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) النحل : ١٠٣ •

قد يظن بعض الناس - كما يقول شيخ الأزهر د • عبد الحلیم محمود - أن العلم الذي يدعو إليه القرآن إنما هو العلم بالدين ، أي العلم بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والعلم بالفروض الدينية من صلاة وصيام وزكاة وحج ، والعلم بالقانون الأخلاقي والتشريع الإلهي • والواقع أن العلم بالدين : عقيدة وأخلاقاً وتشريعاً مما يحث عليه الإسلام ، بل هو في المرتبة الأولى ، لأن الإيمان هو الأساس في كل دعوة دينية منذ أن كان الدين • ومعرفة الإنسان بالله صلته بالله عن طريق رسله ، هي أسمى معرفة بالنسبة للإنسان باعتباره فرداً ، وبالنسبة لأمن المجتمع وطمأنينته على الدماء والأموال والأعراض • (٥) ويضيف د • عبد الحلیم محمود قوله : بيد أنه إذا كانت المعرفة بالله عن طريق رسله لها الصدارة في الأجواء الدينية ، فإن القرآن بين لنا أن الكون كله هو كتاب للعلم بالله سبحانه وتعالى ، أنه مجموعة من النواميس الإلهية التي يؤدي اكتشافها إلى زيادة المعرفة بالله وزيادة الخشية منه • قال تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها • ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود • ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك • إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور) •

لقد أتى قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ، في معرض الحديث عن تنسيق العالم المادي وترتيبه والإبداع فيه (٦) • ويقول د • عبد الحلیم محمود : لقد دفع القرآن المسلمين دفعا إلى مختلف مجالات المعرفة في الكون • لقد دفعهم إلى مجال المعرفة بالتاريخ الذي يسميه «أيام الله» أيام الله التي أنعم فيها على من اتبع هديه واستقام على أمره ودمر من سار في طريق المعصية والشر : (قل سيروا في الأرض فانظروا

(٥) من مقالة بعنوان الإسلام والعلم / مجلة البلاغ عدد ٣٧٦ تاريخ ١٧/١٠/١٩٧٦ م •

(٦) ننس المصدر والصفحة •

كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشيء النشأة الآخرة • ان الله على كل شيء
قدير (•)

(قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ،
كان أكثرهم مشركين) •

(اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من
قبلهم • كانوا هم أشد منهم قوة وأنارا في الارض فأخذهم الله بذنوبهم وما
كان لهم من الله من واق) •

(ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الارض ما لم نمكن
لهم وارسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الانهار تجري من تحتهم ،
فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) •

ودفعهم الى المعرفة بالفلك حينما أقسم ببعض الكواكب مشيرا الى
منزلتها بهذا القسم وحينما أقسم بمواقع النجوم ، والقسم بمواقع
النجوم فيه ما فيه من بعث للتأمل والتدبر والبحث ، يقول سبحانه : (فلا
أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم) • ويقول سبحانه :
(والنجم اذا هوى) • ويتحدث (٧) سبحانه عن النظام الدقيق الذي تسير
عليه الافلاك : (لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر • ولا الليل سابق
النهار وكل في فلك يسبحون) •

وكما دفع القرآن الى التعرف على « ايام الله » وكما دفعهم الى النظر
والتأمل والبحث في النجوم والكواكب ، فانه دفعهم على وجه العموم الى
البحث والنظر والتأمل في الكون كله ، والآيات القرآنية في هذا المجال
تتعاون وتتناسق لتوجه الى التنقيب في جميع مجالات الكون لاكتشاف
نواميس الله في كتابه هذا المنظور • يقول سبحانه : (ان في خلق السموات
والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس
وما انزل من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من

(٧) نفس المصدر والصفحة •

كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض آيات لقوم يعقلون) .

ويقول سبحانه : (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات لاولي الالباب) .

ويقول سبحانه : (تلك آيات الكتاب والذي أنزل انيك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، ان في ذلك آيات لقوم يتفكرون . وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، ان في ذلك آيات لقوم يعقلون) .

ويمن (٨) الله سبحانه وتعالى على الانسانية أجمع بآياته الباهرة ، ضاربا المثل للعقلاء المستبصرين ليتجهوا بالبحث والدراسة الى ما وجههم سبحانه نحوه ، يقول سبحانه : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون) . وقوله (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك آيات لقوم يتفكرون) . وقوله تعالى : (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله ، ان في ذلك آيات لقوم يسمعون) . وقوله تعالى : (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ان في ذلك آيات لقوم يعقلون) وقوله تعالى (ومن آياته ان تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون ، وله من في السموات والارض كل له قانتون) وقاله تعالى : (وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) .

(٨) نفس المصدر والصفحة .

ولقد سخر^(٩) الله سبحانه وتعالى البحر ، يقول سبحانه : (الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار) ويقول تعالى (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها • وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • وألقى في الارض رواسي ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون) ويقول سبحانه : (ألم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ، ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) • وينتهي الأمر في القرآن - كما يقول عبد الحليم محمود^(١٠) - بان الله سبحانه وتعالى سخر الكون كله للانسان • يقول سبحانه : (ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض) • ويقول سبحانه : (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج • والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب • ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد • والنخل باسقات لها طلع نضيد • رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) ويقول تعالى : (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت • والى السماء كيف رفعت • والى الجبال كيف نصبت • والى الأرض كيف سطحت) •

ومعنى هذا كله - كما يقول د • عبد الحليم محمود^(١١) - ان الله سبحانه وتعالى يوجه نظر الامة الاسلامية الى دراسة كتابه المرئي ، انه سبحانه يوجه نظرها الى البحث في الآفاق على مختلف أوضاعها • انه يوجه نظرها الى البحث في الارض والسماء وما بين الارض والسماء سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أونم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ؟) •

(٩) نفس المصدر والصفحة •

(١٠) نفس المصدر والصفحة •

(١١) نفس المصدر والصفحة •

لقد طلع الاسلام على الدنيا بأسرها ، فلم يمالئ ، ولم يهادن ، ولم يقبل بأنصاف الحلول . وقد تصدى الاسلام للأديان السابقة ، بل والبدع اللاحقة ، وصفى حسابها معها . فهو قد أكفر يهود وبريء منهم ، وحاور النصراني وحجهم ، وقومه من قريش والعرب وبريء منهم ، ونزعوا كلهم في حربته عن قوس واحدة ، فما وهن له عزم ، ولا ركن الى يأس ، ولا تزال قولته الشهيرة الى عمه ابي طالب وقد نصحه ان يكف من شتمه لأنهم قريش وتسفيه أحلامهم تفيض بالايمان : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك أمر هذا الدين ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وقد أعلن الاسلام انه قد جب أوهام القرون الاولى وطقوسها ، فلا غول ، ولا عنقاء ، ولا سحر ولا كهانة ، ولا شعوذة ، ولا عرافة ، ولا طيرة . وهكذا تحرر العقل الاسلامي من الأوهام وطلعت سنابك خيل المسلمين تجوز الأقطار من أقصاها الى أقصاها تخرج الناس من عبادة الناس الى عبادة الله الواحد القهار . ونعل هذا في الاسرار التي جعلت كل اقليم فتحه المسلمون وحملوا اليه هذا الدين أن يبقى - رغم المكائد والمحن وضراوة التدبير - منتميا الى هذا الدين وهذه الأمة .

أما في حواره مع أهل الكتاب (١٢) ، فقد ربط الاسلام الديانات السماوية كلها برباط واحد ، فالرسل كلهم حق ، لا تفريق بينهم ، وكلهم بلغوا عن ربهم ، وأدوا الأمانات . وهم جميعا قد همدوا الى الطيب من القول والعمل ، وهدوا الى سواء الطريق ، وقد أخبر الله الكثير من أعمالهم وأقوالهم وتجاربهم ، وساق لنا مواقف انسانية غاية في الجمال والتأثير . يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم : (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً) . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل

(١٢) لمزيد من الوقوف على حيشات الحوار مع أهل الكتاب ننصح بقراءة كتابنا : الفكر الاسلامي وطرائق النقد الادبي .

ورسلا لم نفصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين
ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا
حكيمًا (النساء : ١٦٣ - ١٦٥ .

ويتوجه الاسلام الى أهل الكتاب بهذا التفصيل والمس الرقيق :
(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من
الكتاب ، ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به
الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور
بإذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم) المائدة : ١٥ ، ١٦ .

وقد أشار الله تعالى الى الترتيب المسبق في تدرج الرسالات السماوية
تدرجا يوائم استعداد الانسانية وعروجها في درجات التقدم والتطور . وان
ما أتى به لم يكن الا عن سابق حكمة وتنظيم . ان ما من نبي كان يبعث
الا ويعرف الكتاب الذي تقدم ويتم ما يستطيع ، ويترك البشائر لمن
يتلوه . يقول تعالى (واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة
ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم
وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وانا معكم من
الشاهدين) . آل عمران : ٨١ . وهذا ما يتفق وأبسط القواعد ومعطيات الامور .

وهكذا تتعالى رسالة الاسلام لتكون عالمية تخاطب العقل الانساني
في كل زمان ومكان (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم
نورا مبينا) . النساء : ١٧٤ . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « ... وبعثت الى
كل أحمر وأسود ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ،
لا فرق بين عربي وأعجمي ، ولا بين أعجمي وعربي الا بالتقوى . الناس
سواسية كأسنان المشط ، والخلق عيال الله .

وجاور الاسلام مشركي العرب . وقد كان بدهيا والقرآن نزل بلسان
عربي مبين أن يتوجه الى هؤلاء بالدعوة وان يجري معهم الحوار الذي
تفقه عقولهم . ولم يأل الاسلام جهدا في الرد على مزاعم هؤلاء وافترائاتهم

حتى لقد انتدب حسان بن ثابت ليرد على هؤلاء في قول الشعر ، وينافح عن الدين الجديد وأهله باللغة التي يفهمها هؤلاء وتؤثر فيهم .

وقد أشار الاسلام الى عناد العرب ولجاجهم ومكائدهم . من ذلك ما جاء عن الوليد بن المغيرة المخزومي انه تشاور مع أصحابه واستطلع رأيهم في محمد (صلى الله عليه وسلم) ففكر وقدر ونظر وبسر ثم قال (ان هذا الا سحر يؤثر) . المدثر : ٢٤ .

والى هذا المعنى بعينه اشار القرآن الكريم حين قال (قل انما أعظمكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) سبأ : ٤٦ . وأشار الى الضر بن الحارث بن كلدة الذي كان قد رحل في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فارس وطلب ما يكيد به الاسلام والمسلمين فوجد أحاديث رستم واسفنديار والفارس فاشتراها وقدم بها مكة فجعل يتحدث بها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من مقعده خلفه فيه الضر ، وحدثهم بتلك الاحاديث فأنزل الله تعالى فيه قوله : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) . لقمان : ٦ . كما اشار تعالى الى قول ابي حذيفة بن المغيرة (ان تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . . . ولن تؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) الاسراء : ٩٠ - ٩٣ . ويأتي الرد واضحا : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا: انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون) الحجر : ١٤ .

وقد وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بتبديل هؤلاء القوم اللد أناسا يحبهم ويحبونه قال تعالى : (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) الانعام : ٨٩ . فأبدله الله خيرا منهم بالمهاجرين والانصار .

وحاور الاسلام أهل الملل والنحل والدهريين وأشار الى خلافتهم . قال تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصائبين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شيء

شهيد) الحج : ١٧ وأشار الى الدهريين فجاء فيه من سورة الانعام :
(وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) الآية ٢٩ . وجاء
فيه من سورة الجاثية (وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا
وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) الآية ٢٤ .

وقد جاءت فكرة الله في الاسلام هي المتمة لأفكار كثيرة موزعة في
العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية التي تدور عليها . ولهذا بلغت المثل
الأعلى في صفات الذات الالهية وتضمنت تصحيحا للضماير ، وتصحيحا
للعقول في تقرير ما ينبغي لكمال الله بقسطاس الايمان وقسطاس النظر
والقياس . ومجمل ما يقال في عقيدة الذات الالهية - كما يقول
العقاد (١٣) - غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات
فالله يحيط بالزمان والمكان ولا يحده ، وهو الاول والآخر والظاهر
والباطن ، واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . ليس
كمثله شيء لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ،
عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر
من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين .

وقد أحاط القرآن الكريم بكل الخليفة مبتدأها ومنتهاها ، فalcرون
الاولى علمها عند الله لا يضل الله ولا ينسى ، والطيور والحيوانات والبهائم
أعم أمثالنا ما فرط الله في الكتاب من شيء . وهل أكرم في صورة العدل
الالهى من حشر امرأة في جهنم ودخلها النار في قطرة حبستها لا هي
أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ، ومن أن بغيا من بني
اسرائيل سقت كلبا عطشان فغفر الله لها .

هل أوفى من هذا الجزاء الذي يأخذ الله تعالى للضعيف والمظلوم
حتى انه ليقترض يوم القيامة من الشاة القراء للشاة الجماء ؟ وما أجمل
من هذا القول وأوقعه في النفوس لمن ألقى السمع وهو شهيد (ونضع
الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة
من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين) الانبياء : ٤٧ .

هذا هو البيان القرآني في تكامله وشموله ومخاطبته العقل البشري في كل زمان ومكان . ومن اول يوم للدعوة الاسلامية والرسول صلى الله عليه وسلم يتوجه برسالاته الى الناس جميعا في المغرب والمشرق . وكانت النصوص القرآنية تترى تؤكد هذه العالمية وتلح عليها . قال تعالى : (ان هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم) التكويد ٢٧-٢٨ . وقال تعالى : (وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون . وما هو الا ذكر للعالمين) القلم : ٥١ ، ٥٢ .

وقال تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) سبأ : ٢٨ .

وقال تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) الفرقان : ١ .

وقال في سورة يوسف : (وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكر للعالمين) ١٠٤ .

وقال تعالى في سورة الانعام : (وأوحى الي هذا القرآن لأنذرکم به ومن بلغ) : ١٩ .

وقال في ذات السورة : (اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل لا أسألكم عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين) : ٩٠ .

وهذه الآيات كلها مكية ، أي أن عالمية الرسالة تقرر - كما يقول الشيخ محمد الغزالي - منذ الوحي وفي الأيام التي كانت الدعوة فيها تعاني الامرأين (١٤) .

ومن أول يوم وطد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة دولته انفذ الى الناس جميعا دعوته . فهو قد أنفذ الرسل الى سائر أقطار الأرض والأمم والملوك . ففي سنة ست للهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١٤) من مقال بعنوان : عالمية الرسالة للشيخ محمد الغزالي / مجلة الوعي الاسلامي عدد حزيران ١٩٧٧ م .

الرسول ، فبعث في ذي الحجة حاطب ابن أبي بلتعة من لحم حليف بني أسد ابن عبد العزى الى المقوقس ، وشجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة الى الحارث ابن أبي شمر الغساني ودحية بن خليفة الكلبي الى قيصر . وبعث سليط بن عمرو العامري عامر بن لؤي الى هوذة بن علي صاحب اليمامة وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ، وعمرو بن أمية الضمري الى النجاشي . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى أخي بني عبد القيس صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص الى جعفر بن جندب وعباد بن جندب الأزديين صاحبي عمان (١٥) .

وهكذا قامت الحجة على معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع أقطار العالم المعروفة آنذاك من عرب وغير عرب . وهكذا يلتقي البعدان : النص القرآني والمسلك الالتزامي للرسول صلى الله عليه وسلم أو ودولته على أمر قد قدر . واني في هذا المقام لأنظر باشفاق الى بعض متنصرة العرب او الغرب - لا أدري - ممن يشغبون حتى على وضوح الشمس عالية النهار - ممن يشككون في صحة هذه الوقائع بحجة انهم يستبعدون ان يكون العرب قد بلغوا من البسطة والمناعة وهم لا يزالون محصورين في الجزيرة ما يحملهم على مخاطبة كبار الملوك يومئذ (١٦) . ومن عجب أن أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم في كسرى وقيصر وزوال ملكيهما كل ذلك قد جاء على نحو ما بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٧) وآلت الأمور الى ما يحب المسلمون ، ولم يزل هؤلاء الذين حيل بينهم وبين تذوق حلاوة الايمان يجادلون في تواتر واجماع وتحقيق .

(١٥) تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٦٤٤ وما بعدها .

(١٦) أنيس المقدسى : تطور الاساليب النثرية في الادب العربي ص ٣٣ .

(١٧) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، واذا

هلك قيصر فلا قيصر بعده . والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل .

ابن تبة الجواب الصحيح ص ١٠٧ .

الباب الثالث

الاعجاز البياني

نزل القرآن الكريم يحاور الانسان في كل زمان ومكان بلسان عربي مبين . ولو أن قول الله تعالى في محكم الكتاب : (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسي خلقه وقال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ، انما أمره اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون) يس ٧٧-٨٣ . وقوله تعالى (قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا) الاسراء : ٤٢ . وقوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) المؤمنون : ٩١ . وقوله تعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) الانبياء : ٢٣ . ترجم الى لغات العالم جميعا في كل عصر ما انتقض جمال المعنى ولزوم الحجة في هذا القول المبين . وها نحن على ظهر البسيطة لا نكاد نجد زعامتين تتجاوران في اقليم واحد حتى تحتوي احدهما الاخرى وبعنف أحيانا غير آبهة بصلات القربى والرحم واعتبارات خلقية - حتى لقد قالت العرب : الملك عقيم .

واذا كان هذا واضحا جليا في الهيمنة الارضية وفي تواريخ البشر وأعرافهم ومنطقهم فكيف يقبل العقل البشري - والوثنى والمشرک والمؤمن بتعدد الآلهة - ان تتعدد الزعامات في ملكوت السموات والارض ؟ ان هذا يتناقض ومنطق الانسان في حياته الارضية فكيف يقبل هذا التناقض في تفسير خلق السموات والارض ؟ ولو قد كان تعدد الآلهة كما يزعم

البعض - وبخاصة العقل اليوناني الذي كان أكثر العقول شغفا في بحث ماهية الوجود وفي تتبع الانسجام والتناسق في الافكار - اذاً لكان الصدام بين هذه الآلهة أمرا واقعا ولآلت في النهاية الى اله واحد تكون له الغلبة والسيادة واذن يؤول الامر الى التوحيد وهو ما تنزل به الله تعالى .

وهكذا فان الحجة تقوم على الزنجي ، والنبطي ، وعلى الرومي ، والهندي ، وعلى الاوروبي ، والامريكي ، وبني البشر جميعا . واذا كان هذا الاعجاز يحج هؤلاء في المعاني ، فانه قبيح بالعربي الصليب ، او من يحسن اللسان العربي الا يعرف اعجاز كتاب الله تعالى الا من جهة المعنى فينبغي من هذه الجهة - كما يقول أبو هلال العسكري - ان يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله ومعرفة عدله والتصديق بوعدده ووعيده . . . اذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جل اسمه (١) .

وحتى تكون الحجة بالقرآن الكريم قائمة على وجه الدهر ، تعرف في كل زمان ، ويتوصل اليها في كل اوان ، ويكون سبيلها سبيل سائر العلوم التي يرويها الخلف عن السلف ، ويأثرها الثاني عن الاول - ليظل البرهان منه لا تحا معرضا لكل من أراد العلم به ، وطلب الوصول اليه ، والحجة فيه وبه ظاهرة لمن أرادها ، والعلم بها ممكنا لمن التمسها ، اقتضى ذلك حفظه ، والقيام بأداء لفظه ، على النحو الذي أنزل عليه ، وحراسته من أن يغير ويبدل (٢) .

ولما كان القرآن الكريم قد نزل على قلب رجل من قريش وهم أمة أمية قال تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) الجمعة : ٢ وسواء أكانت الأمية أمية الكتاب المقدس او قلة انتشار الكتابة فان الامرين مرتفقان اذ لو نزل كتاب لأوجد مدارس في الكتابة لان الكتابة

(١) كتاب الصناعتين ص ٧ - ٨ .

(٢) انظر : دلائل الاعجاز ص ٦ .

كانت في الماضي رهنا برجال الدين والأخبار والكهنة - فقد كان لزاما ان يتغلب على عقبات كثيرة تحد من سرعة انتشار النص وتداوله ، وبخاصة أمية القراءة والكتابة .

أمية القراءة والكتابة :

أما مرد قلة انتشار الكتابة فنحسبه لسببين رئيسين :

١ - صعوبة الرسم الكتابي في الحروف العربية : فقد كان العرب في الأقطار التي كانت الكتابة شائعة فيها ، أقتبسوا من الابجدية الفنية ترتيبها للحروف ، ذلك الترتيب الذي ورثته عنها أيضا جميع الأبجديات السامية الأخرى مضافا اليها الأحرف العربية الزائدة وهي ستة أحرف : ث خ ذ ض ظ غ وقد أطلق العرب عليها اسم «الروادف» مؤلفة كلمتي شخذ ، ضظغ(٣) . وكانت كتابة الحروف خالية من النقط حتى سنة ٨٩ هـ (٧٠٧م) استطاع نصر بن عاصم الليثي بأمر من الحجاج أن يدخل النقط الى الحروف العربية(٤) ولعل هذا يفسر لنا كيف أن شاعرا من شعراء المعلقات كطرفة بن العبد يحمل رسالة الى والي البحرين وفيها حتفه دون أن يفك الخط ولعل هذا يفسر كيف أن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما كانتا تنظران في المصحف ولا تكتبان(٥) .

٢ - صعوبة أدوات الكتابة : وقبل ان يعرف العرب صناعة الورق سنة ٩٠ هـ ونقلها عن الصين(٦) فقد كانت أدوات الكتابة بدائية ومعسرة - ومن أدوات الكتابة التي عرفوها : الرق وهو الجلد والأديم والقضيم (الجلد الابيض) والقماش الحرير او القطن ، والنبات وهو العسيب جمعه عسب وهو السعفة او جريدة النخل اذا يبست وكشط خوصها والرقاع والأكتاف والأقتاب والعظام والحجارة والخاف

(٣) د . عدنان الخطيب المعجم العربي ص ١٤ - ١٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٥ .

(٥) البلاذري - فتوح البلدان ، ص ٤٥٨ .

(٦) مصادر الشعر الجاهلي ص ٨٩ .

والكرانيف (أصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع) (٧) .

ازاء ذلك وجهت الرسالة الاسلامية الجهود نحو اتجاه جديد لاحتضان الدعوة والحفاظ عليها . ولا غرو فقد كان أول ما نزل من القرآن قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم) . سورة العلق : ١-٥ . وواضح ان الاتجاه الجديد كان في الحث على تعلم القراءة والكتابة وأدواتها . بل لقد فادى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسارى بدر مقابل أن يعلم كل واحد عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة - كما هو مستفيض في كتب السير والتواريخ والمغازي . وهذا يعني أن قدسية القراءة والكتابة والرغبة فيهما جائز ان تعبر حتى على جسور تحفها الأخطار .

وكان أن انتدب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبة للوحي يدونون ما ينزل من القرآن الكريم ويكتبون الآيات على ما تيسر من أدوات الكتابة من رقاع وأكتاف وعسف . وكان من الكتبة زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود . قال عثمان بن عفان : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، واذا أنزل عليه الآية يقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » (٨) . وهكذا كان التدوين توقيفا من رب العالمين وجاء هذا مصداقا لقوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه) القيامة : ١٦-١٩ .

(٧) المصدر السابق ص ٧٨ - ٨٣ .

(٨) ابو بكر السجستاني - كتاب المصاحف ص ٣٢ . وانظر محمد ابو زهرة المعجزة

الكبرى ص ٤٨ .

وفي خط مواز وعلى ذات الدرجة من الحیطة والرغبة سار الاسلام على توجيه هم المسلمين الى حفظ القرآن الكريم في الصدور .

ولم يقتصر الأمر على الحفظ وحده بل جاوزه الى الطريقة في القراءة التي أزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان القرآن الكريم . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لقد قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة ، وقد كنت علمت أنه يعرض عليه القرآن في رمضان ، حتى كان عام قبض فعرض عليه مرتين ، فكنت اذا فرغ أقرأ عليه ، فيخبرني أنني محسن (٩) . وقال عبد الله بن مسعود : « والله ما نزل من القرآن الا وأنا أعلم في أي شيء نزل ، ما أحد أعلم بكتاب الله مني ، وما أنا بخيركم ، ولو أعلم مكانا تبلغه الابل أعلم بكتاب الله مني لأتيته » (١٠) .

وحتى يولي القرآن الكريم نفسه الى الرواية الشفوية واللوة بالقلب والعلوق بالذاكرة كان القرآن الكريم ذروة متسقة من الجمال الفني . وعلى ما احتواه من طرق للموضوعات المختلفة من وعد ووعد و اخبار وتشريع وقصص ودعوة الى التفكير وما صرفت فيه المعاني القرآنية من استفهام الى تقرير ومن استنكار الى توبيخ الى تهذيب وتأديب فقد حافظ على سمت واحد من حيث جمال الموسيقى وروائية المبنى والاتساق - وهو ما أحسن التعبير عنه ابن مسعود حيث قال : « اذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمنات أتأثق فيهن » (١١) .

وقال صلى الله عليه وسلم من شاء ان يرتع في الرياض الأناثق فعليه بآل حم (١٢) . ان المتدبر لعوامل التيسير في القرآن الكريم حيث يقول تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) في أربعة مواضع من سورة القمر ، ليظفر بالكثير المطرب والمعجب على هذه السبيل . فالارقام

(٩) كتاب المصاحف ص ١٦ . المعجزة الكبرى ص ٦٠ .

(١٠) كتاب المصاحف ص ١٦ .

(١١) دلائل الإعجاز ص ٢٥٣ .

(١٢) المنل السائر ج ٢ ص ٣٥٦ .

التي تقتل الأدب وتجفف روائية السياق والنص ، هذه الأرقام تكتسي في القرآن الكريم جمالا في النسق علاوة على حسن جمال في الإيقاع حتى لا تمل له الأذن سماعا وترديدا . وحسبك من ذلك قوله تعالى من سورة الكهف : (ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) : ٢٥ . وليجرب من شاء وضع الرقم ٣٠٩ في أي نسق أو سياق ثم فلينظر كم درجة التثامه وجماله بالقياس الى هذا الذي يعجب ويضطرب . ومن ذلك قوله تعالى من سورة الحاقة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) ٦-٧ . وقوله تعالى (اذ قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) يوسف : ٤ . وقوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) الأعراف : ١٤٢ . وقوله تعالى : (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) البقرة : ٦٠ . وقوله تعالى (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله) التوبة : ٣٦ . وقوله تعالى (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) الأنفال : ٦٥ . وقوله تعالى : (فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة) البقرة : ١٩٦ .

وانظر جمال التعداد والتفصيل في قوله تعالى : (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) التوبة : ٦٠ . رأيت كيف يعطي التفصيل من نفسه للقارئ حتى لا يمل له ترديدا .

وانظر جمال التعداد والتفصيل في قوله تعالى (يوسف أيها الصديق افتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) يوسف : ٤٦-٤٨ .

وحتى لا تغمض الاسماء على جيل دون جيل ، وتثقل على أصحاب لغة دون لغة من حيث الألفة ومخارج الحروف كان القرآن الكريم يمر بالحوادث والقرائن من غير ما تصریح للاسماء خلا أسماء محمد وزيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير كنية ابي لهب . وواضح أن هذه الاسماء هي ثلاثية أو رباعية ومن ثم تبقى خفتها على اللسان واردة في أي لغة وفي أي جيل . يقول تعالى في أبي بكر رضي الله عنه : (اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار) التوبة : ٤٠ وقال تعالى في عبد الله بن أم مكتوم (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى) عبس : ١-٤ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث لقي ابن أم مكتوم : مرحبا بمن عاتبني فيه ربي . وفي يوسف عليه السلام وامرأة العزيز : (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) يوسف : ٢٣ وقوله تعالى (وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه) يوسف : ٢١ .

ان كل ذلك لما يجعل الآيات قريبة من النفس متلطفة في الدخول اليها والملصوق بالذاكرة . ولذا ليس من عجب ان حفظ الصحابة الأطهار والتابعون لهم باحسان - القرآن الكريم في صدورهم وكان ان ضرب ابناؤهم أرقاما قياسية في المنافسة في الحفظ . لقد حفظ محمد بن جرير الطبري القرآن غيبا وله من العمر سبع سنين وحفظه محمد بن ادريس الشافعي وله من العمر عشر سنين وحفظه محمد بن اسماعيل البخاري وهو دون العاشرة علاوة على حفظ الحديث النبوي الشريف .

فاذا أضفنا الى ذلك كله ان الله تعالى يأجر على التلاوة وان خير الناس من تعلم القرآن وعلمه وان الله يجزي القارئ . قال صلى الله عليه وسلم يقال لصاحب القرآن اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها (١٣) . واذا علمنا ان الصلوات

(١٣) المثل المنائر ج ٣ ص ١٢٠ .

الخمس المفروضة علاوة على النوافل يتعبد فيها بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم مع فاتحة الكتاب (١٤) تبين لنا الحواظ الكثرة التي عملت على صون القرآن الكريم والحفاظ عليه جيلا جيلا . وها نحن في أخريات القرن الرابع عشر الهجري والقرآن الكريم ينلى صباح مساء ، يقرع الآذان ، ويصدع النفوس ، ويتحدى الانس والجن ليأتوا بسورة من مثله . ولا يزداد حفظ القرآن الكريم مع تقدم الاكتشافات وتحسين المخترعات العلمية الا مزيدا من التكفل بالحفظ والصون كي يبقى البرهان من القرآن الكريم لائحا ومعرضا لكل أهل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وما من لغة من لغات البشر التي قدر لها ان تسع الحضارات الا ذهبت بذهاب أصحابها الا العربية ، فانها لم تمحق وبقيت رغم القوارع والنكبات حية سائرة الى النماء . ومن كان يدور في خلد ان المغول الذين دوخوا العالم الاسلامي وقضوا على كثير من التراث الفكري واللغوي سيدخلون الاسلام فيصبحوا أداة نشره في العالم في العصور الوسيطة . ان ذلك كله مصداق قوله تعالى : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) الحجر : ٩ . وهذه بشرى بتكفل حفظ العرب الذين هم أهل هذه اللغة الشريفة التي نزل القرآن الكريم بلسانهم . فليتهم يتدافعون الى نصره الله ونشر دينه وتيسير العربية على الناس جميعا !

جمع القرآن الكريم :

ولعل جولة سريعة في أجواء جمع القرآن الكريم في كتاب واحد وارسال نسخ من النسخة الامام الى الامصار الاسلامية لتوحي بالأسباب التي هيأت لهذا التكفل بالحفظ والصون والتي لا تدع مجالا للشك في أن وراء هذا الجهد تدبرا .

(١٤) وينبغي ان نعيد الى الازهان ان الاسلاف كانوا يقرأون في الصلوات السور الطوال وان كان التخفيف جائزا . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب الانعام والاعراف وكان عمر يغلس بالفجر ويقرأ سورة يوسف ويونس . كتاب المصاحف ص ١٥٣ - ١٥٤ .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرتل القرآن الكريم كما علمه جبريل عليه السلام وكان يقرئه أصحابه وكان يأمر بتدوينه على ما يتيسر من أدوات الكتابة وفي معظمها العصب والقضيم (الجلد الأبيض) والكرانيف (أصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع) والرقاع والأكتاف والاقتاب .

وكان ان انتشر القراء يعلمون القرآن الكريم الى ان كانت حروب الردة وواقعة اليمامة . فعن الزهري عن عبيد بن السباق ان زيد بن ثابت حدثه قال : « أرسل الي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وكان عنده عمر فقال : ان هذا أتاني فقال : ان القتل قد استحر بالقراء واني أخشى ان يستحر القتل بالقراء في سائر المواطن فيذهب القرآن وقد رأيت ان تجمعوه . فقلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : هو والله خير فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدره ورأيت فيه الذي رأى . فقال أبو بكر : انك شاب عاقل وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولانتهمك فاكتبه » (١٥) وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه : « فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علي منه . . . فتتبع القرآن أنسخه من الصحف والعصب والخاف (الحجارة الرقاق) وصدر الرجال » (١٦) . ويروي السجستاني بإسناد ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد جمع القرآن قام في الناس فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأتنا به وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعصب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان (١٧) . وهكذا أتيح للقرآن الكريم أن يجمع مكتوباً في نسخة واحدة بين يدي كتاب من خلال العصب والخاف وان تعرض كل آية على شهيدين من المسلمين العدول وهو حد الشهادة في الاسلام . عن مالك بن أنس جد مالك بن أنس الفقيه قال : « كنت فيمن أمني عليهم

(١٥) كتاب المصاحف ، ص ٦ .

(١٦) نفس المصدر ص ٧ .

(١٧) نفس المصدر ص ١٠ .

فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلاها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعله أن يكون غائباً أو في بعض البوادي فيكتبون ما قبلها وما بعدها ويدعون موضعها حتى يجيء أو يرسل اليه « (١٨) » وفي هذا الجمع يقول زيد بن ثابت : فتنبعت القرآن أنسخه ٠٠٠ حتى فقدت آية كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ٠٠٠ الى قوله وهو رب العرش العظيم) سورة براءة : ١٢٨ فالتمسيتها فوجدتها مع خزيمة بن ثابت فأثبتتها في سورتها (١٩) وكان أن كتب المصحف الامام بلغة مضر . فعن عبد الله بن فضالة قال : لما أراد عمر أن يكتب الامام أقعد نفرا من اصحابه وقال : اذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر فان القرآن نزل على رجل من مضر .

جمع القرآن الكريم في خلافة عثمان :

عن ابن شهاب عن سالم وخارجه أن أبا بكر الصديق كان جمع القرآن في قراطيس وكانت تلك الكتب عند ابي بكر حتى توفي ثم عند عمر حتى توفي ثم كانت عند حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم . فأرسل اليها عثمان فأبى أن تدفعها اليه حتى عاهدها ليردنها اليها فبعثت بها اليه فنسخها عثمان في هذه المصاحف ثم ردها اليها (٢٠) .

وقد سلك عثمان رضي الله عنه في النسخ ما كان سلكه سلفه عمر رضي الله عنهما اذ قام في الناس فقال : من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يشهد عليه شهيدان (٢١) .

(١٨) كتاب المصاحف ص ٢٢ .

(١٩) نفس المصدر ص ٧ .

(٢٠) نفس المصدر ص ٩ .

(٢١) نفس المصدر ص ١٠ عن مصعب بن سعد ان عثمان ناشد الناس : أعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لما جاء به ، وكان الرجل يجيء بالورقة والاديب فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلا رجلا فنأشدهم : لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك : فيقول : نعم (كتاب المصاحف ص ٢٣ - ٢٤) .

وكان السبب في جمع القرآن ونسخ المصاحف في خلافة عثمان ما استشعره الصحابي حذيفة بن اليمان من خوف الاختلاف بين المسلمين . فعن الزهري عن أنس بن مالك ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان غازي أهل الشام في فرج (نغر) أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فرأى حذيفة اختلافهم في القرآن فقال لعثمان بن عفان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب كما اختلف اليهود والنصارى . فأرسل الى حفصة ان ارسلني الي بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك فأرسلت الى عثمان بالصحف فأرسل عثمان الي بالصحف (٢٢) . وقد ارسل عثمان الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن الزبير ان انسخوا الصحف في المصاحف وقال للرهمط القرشيين الثلاثة ما اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم (٢٣) . قال الزهري : واختلفوا يومئذ في التابوت والتابوة فقال النفر القرشيون التابوت وقال زيد التابوة فرفع اختلافهم الى عثمان فقال اكتبوه التابوت فانه بلسان قريش (٢٤) . ذكر ابو حاتم السجستاني قال : لما كتب عثمان المصاحف حين جمع القرآن كتب سبعة مصاحف ، فبعث واحدا الى مكة ، وآخر الى الشام ، وآخر الى اليمن ، وآخر الى البحرين ، وآخر الى البصرة ، واخر الى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحدا (٢٥) .

ان عملية الجمع التي قام بها عثمان كانت استيثاقا بحيث ان المقابلة بين الجمعيين كانت متوافقة مئة بالمئة . يقول القرطبي انه بعد الجمع الذي قام به زيد بأمر عثمان وعاونه المؤمنون الحافظون قد روجع على

(٢٢) المصدر السابق ص ١٩ .

(٢٣) نفس المصدر والصفحة .

(٢٤) نفس المصدر والصفحة .

(٢٥) نفس المصدر ص ٣٤ .

مصحف حفصة رضي الله عنها وكانت هي المقياس لصحته ، فبالمقابلة بينهما بعد الجمع تبينتا صحتهما بصفة قاطعة لا ريب فيها (٢٦) .

وهكذا أتيح لبعدي الحفظ لكلام الله تعالى أن يلتقيا على صعيد واحد وأن يقرنا معا ، فكان المكتوب متواترا بالكتابة ومتواترا بالحفظ في الصدور . وما تم هذا - كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة - لكتاب في الوجود غير القرآن (٢٧) .

(٢٦) المعجزة الكبرى ص ٤٠ .

(٢٧) نفس المصدر ص ٣٥ .

الباب الرابع

العربية والبيان

ولما كان أمر الحفاظ على النص قد ثبت بتواتر وعزائم تضمن ديمومته حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فإن أمر الاقتراب من النص ومعرفة أسرارهِ وبيانه يبقى بغية المسلم وضالته . فإن كان المسلم أعجميا فهو مأمور ان يعبر أسرار القرآن الكريم من خلال اللسان العربي ، وان كان المسلم عربيا فينبغي أن يعرف اعجاز كتاب الله تعالى من حيث البلاغة اللغوية ، ومن حيث البيان العقلي .

ولما كان القرآن الكريم قد شهد للعرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالفحولة اللغوية والجدال العقلي^(١) ولما كان العرب قد سجلوا انطباعاتهم عن القرآن الكريم يوم كانت تتنزل منه الآيات فاننا نزداد بصرا بالاعجاز البياني اللغوي من حيث نكون من لسان العرب أشد قربا . وقد لمس العلماء المسلمون هذا الاستشعار الى العربية لدرجة كان يقول معها ابو عمرو بن العلاء : « لعلم العربية هو الدين بعينه »^(٢) . وكان عمر بن الخطاب يقول : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »^(٣) .

ان مقابلة القرآن الكريم بالنصوص العربية على عهد البعثة النبوية ليبصر الباحث بالرغد الكثير من اللطائف التي خص بها القرآن الكريم والتي كانت وراء اذعان العرب وتسليمهم . بل ان محاولة الوصول الى

(١) قال تعالى : (اذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد) وقال تعالى (لتندر به قوما لدا) وقال (آآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون) وقال : (وان يقولوا تسمع لقولهم) . وطالع حال قریش في بلاغة المنطق البيان والتبيين ج ١ ص ٢٢ .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، مطبوعات دار المأمون ج ١ ص ٥٣-٥٤ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٤ .

استجلاء صورة العربية قبل الاسلام والوقوف على منحى لهجاتها ليميط اللثام عن أسرار كثيرة من أسرار التدبير الالهي الذي رتب لهذا الدين ان يكون في هذا المناخ وتلك الفترة (٤) وكلما نظر المسلم بعيني المعاصر لنزول القرآن كان أقرب الى استجلاء لطائف كثيرة ذات صلة بالعربية وأساليبها في القول . وكلما نظر المسلم بعيني المعاصر لنزول القرآن المتدبر لآياته كان أقرب الى مواطن التنزيل . يروي أبو بكر السجستاني عن عمر رضي الله عنه قوله : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمر عند أبي بكر في الأمر من أمر المسلمين ، وانه سمر عنده ذات ليلة وانا معه فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وخرجنا معه نمشي ، فاذا رجل قائم يصلي في المسجد ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع قراءته . فلما كدنا ان نعرف الرجل قال : من سره ان يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » (٥) يعني عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه . ويروي الشاعر المسلم محمد اقبال نصيحة والده له حيث كان يقول : اقرأ القرآن كأنه يتنزل عليك .

ان ذلك لما يقرب من مناخ تنزلات الرسالة ويقف المسلم على غايات ومقاصد كثيرة مما يتصل بدلالات العربية وطرائقها .

دور الشعر في الوقوف على أسرار الإعجاز :

لما كان الشعر ديوان العرب وميدان القوم اذا تجاروا في الفصاحة والبيان ، كان محالاً ان يعرف كون القرآن الكريم معجزاً من جهة الفصاحة الا من عرف الشعر - كما يقول الامام عبد القاهر (٦) .

وفي الشعر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان من الشعر لحكمة ، وان من البيان لسحرا » (٧) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم

(٤) انظر في تفصيل ذلك كله : مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية تحت باب : الصورة الادبية للقرآن .

(٥) كتاب المصاحف ص ١٣٧ .

(٦) دلائل الإعجاز ص ٦ .

(٧) نفس المصدر ص ١١ .

لحسان : « قل وروح القدس معك » (٨) . وقد استنشد كعب بن مالك وهو راكب ناقته ، فأنشد الأبيات التي أولها :

قضينا من تهامة كل ريث وخير ثم أجمعنا السيوفنا .
نخيرها ، ولو نطق لقال قواطعهن دوساً أو ثقيفاً

فأنشد الكلمة كلها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده لهي أشد عليهم من رشق النبيل (٩) . قال ابن سيرين : فنبئت ان دوساً انما أسلمت بكلمة كعب هذه (١٠) .

ويروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لكعب (بن مالك) : « ما نسي ربك ، وما كان ربك نسيا ، شعرا قلته . قال : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أنشده يا أبا بكر . فأنشد أبو بكر رضوان الله عليه :

زعمت سخينة (١١) أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب (١٢)

أما علمه صلى الله عليه وسلم بالشعر فكما روي ان سيودة أنشدت « عدي وتيم تبتغي من تحالف » فظنت عائشة وحفصة رضي الله عنهما انها عرضت بهما . وجرى بينهما كلام في هذا المعنى ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليهن فقال : يا ويلكن ! ليس في عديكن ولا تيمكن قيل هذا ، وانما قيل هذا في عدي تميم وتيم تميم . وتمام هذا الشعر :

فحالف ولا والله تهبط تلعة من الارض الا انت للذل عارف
ألا من رأى العبدین أو ذكرا له عدي وتيم تبتغي من تحالف (١٣)

(٨) المصدر السابق .

(٩) دلائل الإعجاز ص ١٢ .

(١٠) نفس المصدر والصفحة (الحاشية) .

(١١) سخينة : لقب تنبذ به قريش ، لانها كانت تأكل السخينة وهي طعام من دقيق الشعير واللحم ويسخن وذلك في أيام المجاعات . والحديث رواه ابن عساكر بإسناد عن جابر نفس المصدر ص ١٣ الحاشية .

(١٢) نفس المصدر ص ١٣ .

(١٣) نفس المصدر ص ١٥ .

وأما ارتياحه صلى الله عليه وسلم للشعر واستحسانه له ، فقد جاء فيه الخبر من وجوه : من ذلك حديث النابغة الجعدي قال :

أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم قولي :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وأنا لئرجو فوق ذلك مظهرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أين المظهور يا أبا ليلى ؟

فقلت : الجنة يا رسول الله . قال : أجل ان شاء الله . ثم قال : أنشدني فأنشدته من قولي :

ولا خير في حلم اذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدر
ولا خير في جهل اذا لم يكن له حلیم اذا ما اورد الأمر أصدر

فقال صلى الله عليه وسلم : أجبت ، لا يفضض الله فاك (١٤) .

وعن عائشة رضوان الله عليها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول : أبياتك فأقول :

ارفع ضعيفك لا يحرك بك ضعفه يوما ، فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يشني عليك وان من أثنى عليك بما فعلت فقد جزی (١٥)

وقصيدة كعب بن زهير (بانث سعاد) التي أنشدها بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم واستحسانه لأبياتها حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير الى الحلق ان اسمعوا (١٦) دليل آخر يضاف الى علم الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر واستحسانه له .

أما قوله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) فليس المنع في ذلك منع تنزيه وكرامة - كما يقول الامام عبد القاهر - بل سبيل الوزن في منعه عليه السلام اياه سبيل الخط حين جعل عليه السلام لا يقرأ ولا

(١٤) المصدر السابق ص ١٦ .

(١٥) دلائل الاعجاز ص ١٤ والشعر لزهير بن الحباب .

(١٦) نفس المصدر ص ١٧ وطبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٠٣ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون من اصحابه مكان المائدة من القوم يتحللون حلقة دون حلقة . فيلتفت الى هؤلاء والى هؤلاء .

يكتنب في أن لم يكن المنع من أجل كراهة في الخط بل لأن تكون الحجة أبهر وأقهر ، والدلالة أقوى وأظهر ، ولتكون أكعم للجاحد ، وأقمع للمعاند ، واردة لطالب الشبهة (١٧) . وقد استثنى رب العالمين من الشعراء المؤمنين ، قال عز من قائل : (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا) الشعراء : ٢٢٧ .

وقد تمثل الخليفة عمر رضي الله عنه بشعر عمارة بن الوليد (١٨) .

أسرك لما صرع القوم نشوة خروجي منها سالما غير غارم
بريئا كأنني قبل لم أك منهم وليس الخداع مرتضى في التنادم

وكان الحسن البصري رحمه الله يتمثل في مواعظه بالأبيات من الشعر . وكان من أوجهها عنده :

اليوم عندك دلها وحديثها وغدا لغيرك كفها والمعصم (١٩)

(يقصد الدنيا) .

(١٧) دلائل الإعجاز ص ٢٠ وانظر صبح الاعشى ج ١ ص ٥٩ .

(١٨) نفس المصدر ص ٩ .

(١٩) نفس المصدر والصفحة .

الباب الخامس

أساليب البيان

إذا كانت أساليب البيان في الكثرة الكثيرة من حيث تصحيح الأقسام ، وحسن الترتيب والنظام ، والابداع في التشبيه والتمثيل ، والاجمال ثم التفصيل ، ووضع الفصل والوصل موضعهما ، وتوفية الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما (١) ، فان اول ذلك وأولاه : القول على (التشبيه والتمثيل والاستعارة) ، فان هذه - كما يقول الامام عبد القاهر - « أصول كبيرة كان جل محاسن الكلام - ان لم نقل كلها - متفرعة عنها ، وراجعة اليها . وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها ، وأقطار تحيط بها من جهاتها » (٢) .

تنوير :

ما من امرئ في هذا الكون ، حباه الله عقلا راجحا ، الا وله تصور عام يحيط بالكون والاحياء ، ويربط المخلوقات بعضها ببعض . وكلما ازداد المرء بالاشياء خبرا ، وكلما أدهف الحس ، وحدد البصر ، ليجدن الصورة اكثر اشراقا ، وأوضح رؤية .

وهكذا تنعكس الحقيقة الكونية على نفوس الناس المتباينة صورا شتى ، بعضها المضيء ، وبعضها المعتم ، بعضها المجزأ ، وبعضها المتكامل . والتكامل هذا ليس وليد العقل وحده ، بل يسعى به العقل والقلب والشعور والاحساس . وفي هذه الميزة وحدها يفضل الانسان سائر الحيوان ، ويرتقي على العجماوات ، بل في هذه الميزة ايضا يفضل الانسان العاقل البالغ غيره من بني الانسان ممن حرم هذه النعوت والصفات . المرء يسمع ويرى ويحس ويتأمل ، ثم يأتي العقل الواعي ليشد الشيء الى شبهه ، والمتجانس الى رفقه ، ويسلك ذلك كله في نظام متسق ،

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٠ والبيان والتبيين ج ١ ص ٧٣ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٦ .

تنزاح من أمامه التناقضات ، وتحل معه الطلاسم والرموز . وبعبارة أخرى نقول : ان العقل يوحد بين المدركات الانطباعات ، ويجعل منها صورة واحدة كلية تحتوي الاشياء والعلاقات ولا تذيبها ، بعكس الحيوان او النطف الذي يسمع ويرى ويحس ويتألم ، لكنه يقف على عتبة الجزئيات ، ولا يتجاوزها ، ذلك ان ملكة العقل التي تقيم العلاقات ، وتبني الوشائج والصلات ، وتلمح أوجه الشبه ، وتصنف وتنظم ، تكاد تكون متغيبية . لذا فان العقل الانساني الناضج وحده هو الذي يقدر على بناء نظام متكامل من الرؤية تحيط بالعوالم والحياة ، وتدرك المجرد والمحسوس ، وتنطلق الى العلة من المعلول . وهذا العقل وحده القادر على النفاذ من عالمنا الصغير الى عوالم أوسع وأرحب . ولعل ذلك وحده يفسر تكليف الانسان لأمانة المسؤولية ، ووضعه أمام الجزاء والثواب والعقاب ، فهو وحده الذي يسلسل العواقب ، ويعرف النتائج ، ويتبين الرؤية من مكان بعيد ، ولا كذلك الأعجم او الطفل أو المجنون* .

مناهج البحث :

وقد تنوعت مناهج التفكير ووسائل البحث عن الحقيقة الأزلية التي ينطوي تحتها ناموس العالم ، فنزل سقراط الى الشارع يسأل الحوذي والحمال ، ويتلمس المعرفة في الفطرة الانسانية وأسرارها ، موقنا ان النفس ذاتها قبس من السر العظيم الذي به تتسق الحياة ، وفزع أفلاطون الى عالم سحري يموج بالغرائب والعجائب : عالم علوي هو أصل ، وما دونه فهو ظل خافت ، وتصبح محاكاة الاشياء في منطقته ظل ظل وقد رأى هذا ان العمر قصير ، ويمضي الأفراد في هذه الحياة دون ان تتحقق رغباتهم ، واذاً فلا بد من حياة أخرى يرشف منها المرء سعادة ولا يكاد يرتوي . واذا كانت حياتنا تمضي بلا ثواب أو عقاب عادلين ، فلا بد والحالة هذه من أن يعقب ذلك حياة يصفى فيها الحساب ، وتعاد الأمور فيها الى أنصبتها الصحيحة . ونزل أرسطو الساحة ، وكان من رأيه أن الفلاسفة لمسوا بعض الحقيقة ، لكنهم ضلوا الاداة والسبيل ، فأفلاطون

★ من أراد التوسع في هذه التفصيلات فليراجع كتابنا . الفكر الاسلامي .

يفسر الكائنات بمثل قائمة بذاتها مستغنية عما سواها فضل صاحبه الطريق ، لأن تفسير الشيء لا يكون بشيء خارج عنه ، ولأن المثل هي أجناس كلية ، ولا وجود لها خارج أذهاننا اذ لا وجود في الواقع الا للجزئيات . ولم يهتد فيثاغورس الى تفسير الكائنات المادية عن طريق الخصائص الرياضية التي هي في الواقع مفاهيم ذهنية مجردة .

ومن لدن سقراط وأفلاطون وأرسطو والفلاسفة يجربون ويفترضون ويشرحون ويبنون ، لكن جهودهم ما تكاد تبني حتى تنقض ، وما يكاد أحدهم يجد تفسيراً حتى يجد الآخر له نقضا وهكذا سطرت صفحات وامتلات مجلدات وقامت بديهيات وافتراضات ثم مقدمات وأبنية منطقية وأقيسة لم تثبت الى قرار ، ولم تصمد للزعازع والأفكار . المرء يغير رأيه ، وينسلخ من افتراضاته ، والثاني يبطل الاول ، والمركة لها أول ولا آخر لها ، ثم أنى لنا بالاقتناع والتحقيق وأقيسة الفلسفة لا تذلل للتجربة كما ذل العلم ؟ ! ان محاولات العقل المجرد قد ارتدت كلها حسيرة كليله الطرف ، وبقيت زمر الفلاسفة والعقلانيين تحت قبة السماء تقذف بالغيب وترجم بالظنون من مكان بعيد ، فلا هي أبصرت ، ولا هي درت أو وعت ما رأت . ومات أغلب هؤلاء في حيرة الشك وعمى الضلالة ، وتلبس التخليط ، وقل أن تجد أحدا منهم أصر على ما فعل الا وتبدت له الحياة عقما وجدبا ، والا تراءت له خواء وجفافا ، والا حدثته النفس بالتردي والانتحار* .

ومن جهة أخرى كان هناك أفراد تواصلوا بالحق ، وتطهروا من الدنس والبوائق ، ونزهوا الله عن كل نقيصة ، وتاقوا بأرواحهم الى

★ في سر الفصاحة أبيات أوردها الخفاجي تحكي حال هؤلاء الفلاسفة .

فطالما قصدوا فيها وما عسفوا
يكاد يضحك منه الحبر والصحف
تخفى على الغمر أحيانا وتنكشف
والعمر أقصر أن يلقي له طرف
ولا توهمت الا غير ما وصفوا

وفي الفلاسفة الماضين معتبر
وقد أتوك بمين من حديثهم
ظن بعيد وأقوال ملفقة
الامر أكبر من فكر يحيط به
وما رضيت بعقلي في جدالهم

الملا الأعلى ، وتقدموا الى ربهم بقلوب مؤمنة ، ونفوس خاشعة ، وأصوات خافتة ، وتواضع جم ، ففاضت عليهم اشراقات الذات العلية ، وذاقوا حلاوة الطاعات ، وظفروا ونالوا ، واطمأنوا الى النوال . أتتهم التجليات وحيا ، او من وراء حجاب ، فمنهم من كلم الله ومنهم من أتته الملائكة قبلا ، ومنهم من ألقيت اليه الألواح بلغته ، ومدى استعداده ، ومنهم من لقي صحفا وأسفارا ، ومنهم من رأى الرؤيا ، فاستوت في التحقيق والتصديق كفلق الاصباح .

وقد هدي هؤلاء جميعا الى القول الطيب والعمل المشمر ، ودعوا الى مكارم الأخلاق ، وتنادوا بنصب العدل ، واقامة الموازين ، ما ند أحدهم عن ذلك ، ولا شذ ، ولاخرج مفاضبا او مغالطا ، انما هي الطمأنينة والاذعان والتسليم ، حتى لنجدن امراء أشربت روحه بتعاليم ربه لا هو بالنبي ولا بالرسول ، وهو الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول بلمهجة المطمئن الواثق : لو ضاع مني عقل بعير ما نشدته الا في كتاب الله . هذه الرؤية الكلية الواضحة التي تنزاح من أمامها الاوهام ، وتختفي وراء شمسها التناقضات والمسافات والأبعاد ، والى مثل هذا أشار رب العزة في :

محكم الكتاب - وهو أعلم - حين قال (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ٧ : ٣٠ .

ولما كان عالم الله غير عالمنا قال تعالى (وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون) الحج : ٤٧ ولما كان الله تعالى هو وحده الذي يجوز الأبعاد الزمانية والمكانية ويحد الزمان والمكان ولما كانت اللغة - أي لغة - هي انعكاس المدركات والتعبير عنها والتعامل معها ، استلزم أن يكون هناك فجوة بين اللغة من حيث قصورها عن أن تلم بالحقائق العلوية التي لم تول نفسها للمدركات وهو ما عبر عنه الامام ابو حامد الغزالي حين ذكر التصرف ومقاماته :

قد كان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

ان اللغة هي مجموعة من المدركات الحسية والمعنوية المشتقة منها فكيف ثمة يحيط المدرك بما لا يدرك . ثم أن العقل الانساني يعلم القليل من علم الله والكثير الكثير سيبقى محجوبا بعوامل كثيرة* . قال تعالى : (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) وقال تعالى : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) الكهف : ١٠٩ وقال عز من قائل : (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) لقمان : ٢٧ .

ازاء ذلك كله شاء الله تعالى ان يقرب الى الناس جميعا - عربهم وعجمهم ، عوامهم وخواصهم ، حاضريهم ومقبلهم - من خلال ضرب الأمثال وسوق القصص وذكر الأخبار واستخدام التشبيه والتمثيل والايجاز . ومن ثم فان المقاصد العلوية تنعكس على نفوس الناس بقدر صفاتهم واستعدادهم ومدركاتهم . وهكذا يكون الاقتراب من النص القرآني مستويات ويظل التفاوت قائما حتى تقوم الساعة وتنجلي الأمور على حقيقتها وبكلياتها . قال تعالى : (ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)سورة ق ٢٠-٢٢ يقول الامام ابو حامد الغزالي في احياء علوم الدين : «انما ينكشف للراسخين في العلم من أسرارهم بقدر غزارة علمهم ، وصفاء قلوبهم ، وتوفير دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ، ويكون لكل واحد حد في الترقى من درجة الى درجة أعلى منها . فأما الاستيفاء فلا مطمح فيه ، ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلاما ، فأسرار كلمة الله عز وجل لا نهاية لها »(٣) وينقل ضياء الدين بن الأثير قول الغزالي في كتابه الموسوم بالجواهر والاربعين الى اشارته « أن في القرآن اشارات وإيماءات لا تنكشف الا بعد الموت »(٤) .

★ يقول مالك بن نبي في كتابه الظاهرة القرآنية : ان عبقرية الانسان نحمل بالضرورة طابع الأرض حيث يخضع كل شيء لقانون المكان والزمان . بينما يتخطى القرآن دائما هذا القانون ، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الابعاد الضيقة للعبقرية الانسانية . ص ١٨٢ .

(٣) احياء علوم الدين ج ١ ص ٢٦٣ ، المعجزة الكبرى ص ٦٠٧ .

(٤) المثل السائر ج ٣ ص ٦٣ .

ان التشبيه والمجاز في القرآن الكريم قد استحضرت الحقائق والأسرار العلوية من خلال أقصى درجات الاشراق والتوهج ووفرة الاحتمالات وقوة التكبير ودرجة الاحساس . وبقدر ما يكون المرء من التهاب الطبع وحدة القريحة بقدر ما يتغلغل في الأسرار ، وبقدر ما تكون له المعية يقوى معها على الغامض ويصل بها الى الخفي (٥) .

ولما كان الانسان هو مدار الامر ومناط الفهم وكان كل ما في الوجود قد سخر في خدمته وتحت هيمنته ووسطوته ، قال تعالى : (ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض) ، فان درجات التقريب والايضاح وضرب الامثال وتصريف المعاني انما كان الانسان من خلال منافذ الفهم فيه والاستيعاب هو المدار والمقصد . وسنتبين في منهج التشبيه القرآني والمجاز القرآني كيف وظفت عوالم الانسان ومناخاته ومدرجاته في النفاذ الى المقاصد الالهية حتى ليستطيع المسلم المتذوق لحلاوة الطاعات الراغب في الله أن ينفذ من عالمه الصغير من خلال الهدى الى وجوه الشبه والايماءات بحيث يدرك مقاصد الله تعالى في كل أمور دنياه* . يقول تعالى في حديث قدسي : ما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها .

التشبيه :

وهو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى (٦) . ومن أدواته الكاف ، وكان ، ومثل ، وما في معناها (٧) . ويجري التشبيه في صور كثيرة تفهم من طبيعة السياق ، من ذلك : المبتدأ والخبر كقول النبي صلى الله عليه

(٥) انظر دلائل الاعجاز ص ٢٩٣ ، ٢٩٦ .

★ من ذلك قوله تعالى : (والله عب السموات والارض وما أمر الساعة الا كلمح البصر) النحل : ٧٧ . نرى أليس هناك من حركة أسرع من لمح البصر ؟ الواقع أن هناك مالا نهاية من بجزئة اللمحة لكن الله تعالى قرب الى الانسان من خلال بصره لانه مدار هذا الامر أعنى الافهام والفهم او البيان والتبيين) .

(٦) القزويني ، تلخيص المفتاح ص ٢٢٤ الخفاجي سر الفصاحة ص ٢٩٠ وانظر : The Lively Rhetoric, P. 235.

(٧) تلخيص المفتاح ص ٢٤٢ .

وسلم : « الكمأة جدري الأرض » (٨) والمصدر المبين للنوع نحو : أقدم أقدام الأسد (٩) . والمضاف والمضاف اليه ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد السنتهم ؟ » كانه قال : كلام اللسنة كحصائد المناجل (١٠) أو التناسب بواسطة التمليح او التهكم كأن يقال للجبان : ما أشبهه بالأسد (١١) ! .

وواضح ان للتشبيه طرفين أو ركنين هما المشبه والمشبه به . وقد يأتي التشبيه مظهر الأداة أو يأتي مضمورها يجمعهما بيت البحتري :

ذات حسن لو استزادت من
الحسن اليه لما أصابت مزيدا
فهي كالشمس بهجة والقضيب اللدن
قدا والريم طرفا وجيدا (١٢)

ويرى الخفاجي ان التشبيه بغير حرف على ظاهر المعنى يستحسن لما فيه من الايجاز (١٣) وذلك كمثل قول أبي القاسم الزاهي :

سفرن بدورا وانتقبن أهلة
ومسن غصونا والتفتن جآذرا
وقول الوأواء الدمشقي :

أسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت
وردا وعضت على العناب بالبرد (١٤)

وفي الحديث النبوي الشريف قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن العزل فقال هو الوأد الخفي (١٥) وأعلى مراتب التشبيه في قوة المبالغة باعتبار أركانه كلها او بعضها هو حذف وجهه وأداته (١٦) وهو التشبيه البليغ .

(٨) المثل السائر ج ٢ ص ١١٧ .

(٩) نفس المصدر ص ١٢٦ .

(١٠) نفس المصدر ص ١١٨ .

(١١) تلخيص المفتاح ص ٢٤١ .

(١٢) المثل السائر ج ٢ ص ٣٦٨ .

(١٣) سر الفصاحة ص ٢٩٠ .

(١٤) انظر سر الفصاحة ص ١٣٥ وينسب البيت الاول لديك العن ، ص ٢٩٨ .

(١٥) المثل السائر ج ٢ ص ١٥١ .

(١٦) تلخيص المفتاح ص ٢٥٩ .

في قولنا : زيد كالأسد في الشجاعة - واضح ان زيدا والأسد اشتركا في صفة مغينة وهي الشجاعة والشجاعة هي سمة بارزة في الأسد ، ولا شك ان هذا البروز سيكون له انعكاس ايجابي على زيد . ولسنا معنيين بالبحث عن وجه التقاء بين زيد وبين الأسد بأكثر مما يريده النص بحرفيته والا نكون كمن نحول الامر عن مقصده ورام غير الذي قدم . بل ان محاولة تحميل النص اكثر مما يحمل ليعطي زيدا المزيد من صفة الحيوانية التي هي هنا الى الذم والتعريض أقرب منها الى الاطراء والمديح . وما نظن ان أحدا يحب أن يشبه الممدوح بان له ذيلا كالأسد او ان يمشي على أربع أو غير ذلك من فضول المجانبة للمقصود (١٧) .

ان الشجاعة هي وجه الشبه بين الاثنين وفيما سوى ذلك يبقى لكل خصوصيته وذاتيته .

والتشبيه يأتي على ضربين :

- ١ - أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه الى تأول .
- ٢ - ان يكون الشبه محصلا بضرب من التأول .

فمثال الاول : تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل نحو ان يشبه الشيء اذا استدار بالكرة في وجه ، وبالحلقة في وجه آخر . وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدود بالورد والشعر بالليل والوجه بالنهار . أو جمع الصورة واللون معا كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور . وكذلك التشبيه من جهة الهيئة كتشبيه القد اللطيف بالغصن . ويدخل في الهيئة حال الحركات في اجسامها كتشبيه من تأخذه الاريحية فيهتز بالغصن تحركه ريح ونحو ذلك . وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس (١٨) نحو تشبيه صوت بعض الأشياء بصوت غيره كتشبيه أطيظ الرجل بأصوات الفراريج وكتشبيه بعض الفواكه

(١٧) انظر في مناقشة ذلك المثل السائر ج ٣ ص ٥٢ .

(١٨) المدرك هو أو مادته باحدى الحواس الخمس الظاهرة : البصر والسمع والشم والذوق واللمس .

الحلوة بالعسل والسكر وتشبيهه اللين الناعم بالخز . وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة ، والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم والدؤم وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بهما . فالشبه في هذا كله بين لا يجري فيه التأول ولا يفتقر اليه في تحصيله (١٩) .

ومثال الثاني وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأول كقولك : « هذه حجة كالشمس في الظهور » وقد شبهت الحجة بالشمس من حيث ظهورها . وهذا التشبيه - كما يقول الامام عبد القاهر - لا يتم الا بتأول ، وذلك ان تقول : حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الاجسام ان لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها . ثم تقول ان الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول ، فاذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما ادعى من الحكم : قيل هذا ظاهر كالشمس (٢٠) .

ثم ان ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً . فمنه ما يقرب مأخذه - كما يقول الامام عبد القاهر - ومنه ما يحتاج فيه الى قدر من التأول ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجه الى فضل روية ولطف فكرة . فمما يشبه الاول قولهم في صفة الكلام : ألفاظه كالماء في السلاسة وكالنسيم في الرقة وكالعسل في الحلوة . يريدون ان اللفظ لا يستغلق ولا يشتهبه معناه ولا يصعب الوقوف عليه وليس هو بغريب وحشي يستكره لكونه غير مألف او ليس في حروفه تكرير وتنافر يكده اللسان ، فصارت لذلك كالماء الذي يسوغ في الحلق والنسيم الذي يسري في البدن ويوجد في الصدر انشراحا ويفيد الناس نشاطا وكالعسل الذي يلذ طعمه وتهش النفس له ويميل الطبع اليه . فهذا كله - كما يقول الامام عبد القاهر - تأول ورد شيء الى شيء بضرب من التلطف ، وهو أدخل قليلا في حقيقة التأول (٢١) .

(١٩) انظر : أسرار البلاغة ص ٨٢ وانظر : تلخيص المفتاح ص ٢٤٠ .

(٢٠) نفس المصدر ص ٨٣ وانظر : تلخيص المفتاح ص ٢٤١ .

(٢١) انظر : أسرار البلاغة ص ٨٤ .

وأما ما تقوى فيه الحاجة الى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع فنحو قول كعب الأشقرى وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس فسأله : فأيهم كان أنجد ؟ قال : « كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها » . فهذا كما ترى - كما يقول الامام عبد القاهر - ظاهر الأمر في فقره الى فضل الرفق به والنظر . ألا ترى انه لا يفهمه حق فهمه الا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة . وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس فانه كالمشترك البين الاشتراك حتى يستوي في فهمه اللبيب اليقظ والمضغوف المغفل . فأما ما كان مذهبه في اللطف مذهب قوله هم كالحلقة فلا تراه الا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء (٢٢) .

ومثل ذلك البيت :

أيقننى والمشرقي مضاجعي ومسنونه زرق كأنياب أغوال

وأنياب الاغوال مما لا يدركها الحس لعدم تحققها وهي لذلك مبنية على قوة انتوهم (٢٣) .

أغراض التشبيه :

التشبيه هو فتح باب على المجهول من خلال المعلوم ، اذ ان أنس النفوس موقوف - كما يقول الامام عبد القاهر - على ان تخرجها من خفي الى جلي ، وان تردها في الشيء تعلمها اياه الى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو ان تنقلها عن العقل الى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر الى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما قالوا « ليس الخبر كالمعاينة » ولا الظن كاليقين » فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة (٢٤) . ان

(٢٢) انظر نفس المصدر والصفحة . وانظر : أبو زيد البلخي ، البدء والتاريخ ج ١ ص ٢٣ .

(٢٣) تلخيص المفتاح ص ٢٢٨ .

(٢٤) أسرار البلاغة ص ١٠٨ وانظر : سر الفصاحة ص ٢٩٠ .

المعاني شبيهة - كما يقول ضياء الدين بن الأثير - بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة ، فكما أنك إذا أوردت عليك مسألة من المجهولات تأخذها ، وتقلبها ظهرا لبطن ، وتنظر الى أوائلها وأواخرها ، وتعتبر أطرافها وأوساطها ، وعند ذلك تخرج بك الفكرة الى معلوم ، فكذلك إذا ورد عليك معنى من المعاني ، ينبغي لك أن تنظر فيه كنظرك في المجهولات الحسابية (٢٥) .

واذن فالتشبيه معادلة جبرية تتكون من مجهول او أكثر ومن معلوم او أكثر من الدرجة الاولى او الثانية او الثالثة حسب تعقيد الصورة وكثرة المتغيرات . وحتى تكون الصورة أقرب الى الواقع فأنني أميل الى استخدام التعبير الرياضي (=) يساوي على وجه التقريب المشبه س = المشبه به (معلوم) . ولو طبقنا هذه المعادلة الجبرية التي سبق اليها ضياء بن الأثير على منهج القرآن الكريم في التشبيه وعلى المنهج النبوي الشريف سنجد اتساقا في التفسير ، واقتصادا في التعبير ، ولطائف ومحاسن . قول الله عز وجل : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) سورة النور : ٣٩ .

السراب ظاهرة فيزيائية تتأتى من انكسار أشعة الشمس المرتدة عن الفلوات والكثبان الرملية عبر الطبقات الهوائية المختلفة الكثافة بسبب من تفاوت درجات سخونتها حسب قربها من الارض او بعدها عنها ، اذ المعلوم ان أشعة الشمس تخترق طبقات الهواء ولا تسخنها وهذا ما يفسر برودة الهواء في المناطق العالية أكثر من سواها . وعندما تصل الأشعة الى الارض تسخنها وتبدأ هذه السخونة تلامس الطبقات الهوائية الأدنى فالأدنى ، وعند ذلك فان انعكاس الأشعة عبر التفاوت الكثافي سيجمع الأشعة في بؤرة واحدة تنعكس على مكان معين فتبدو ظاهرة السراب .

واذا كان السراب هو خدن المناطق الصحراوية فان المسلم يزداد يقينا اذا كان أقرب الى الف هذا المعلوم والوقوف على أسرارهِ . وهنا

يبدو جليا تطابق كتاب الله تعالى المسطور مع كتابه المنظور وهو هذا الكون المفتوح بكل ما فيه من غنى في البيئة وأحوالها . وإذا كان المسلم ينتمي الى بيئة صحراوية فلا يعفيه من الأمر أن لا يسير في الأرض ويزداد فقها في دينه من خلال عبور القناطر التي تفتح على المجاهيل أبوابا من المعلومات التي ينبغي ان يحسن الوقوف عليها من وجوها الكثيرة . وهذا ما يفسر ورود كلمة أفلم يسيروا في الارض وكلمة سيروا في الارض اكثر من اثنتي عشرة مرة في كتاب الله تعالى .

ثم هل السراب ظاهرة تتكرر في كل زمان ؟ الجواب حتما بالايجاب وإذا فسيكون لهذا المعلوم قوة التجربة العلمية من حيث التثبت منها واعادتها . وهكذا يستطيع المسلم في كل زمان ان يزداد في المعلوم تحديقا وتحديدا ليكون الى النص قريبا حبيبا . وهكذا يلوح المعلوم لكل فرد ولكل بيئة على نحو قد لا يكون ذاته لدى بيئات مغايرة وأناس مغايرين . أو جائز أن تقع عيونهم على أوجه شبه في المعلوم تتفاوت من حيث التكامل أو درجة التوهج أو الوقوف على الغايات القريبة والبعيدة . وواضح انه كلما ازدادت المعطيات العلمية والحضارية والبيئية أتيح للنص ان يبدو اكثر اشراقا وتألقا في النفوس . أما الاشراق والتألق فهو سمة القرآن الكريم كله ولكن الاشراق والتألق هنا هو ما يتبدى للانسان وهو مدار الامر ومناطق القصد كما سبق أن قدمنا .

وهكذا يبدو القرآن الكريم منجما لتعدد الايحاءات وغناها وسعة جوانبها وتكثر خيوطها وكلما عاود الانسان هذا المنجم أمده بالجديد الجديد . وهو الوصف الذي قاله في القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقنى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد » (٢٦) .

(٢٦) دلائل الاعجاز ص ٢٥٣ ويخلق بمعنى يبلى من طول العهد والرد : التردد أي انه يبقى جديدا مهما كرره التالي وردده وهو بعض الحديث رواه الترمذي باسناد عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة وفيه : ولا يشبع منه العلماء ولا يملأ الاتقياء : المعجزة الكبرى ص ١٥ .

وواضح أن الأسرار الالهية والمقاصد العلوية كانت من خلال البيان تنعقد منها الامور في آيات كونية وبيئية يشاهدها الناس ويتعاملون معها ويحددون فيها البصر ويرهفون اليها السمع . وان الوصول الى هذه المقاصد هو المرور عبر البيئة الارضية ومحتوياتها وهي ذات البيئة في كل زمان ومكان . ولعل هذا يوميء الى ان التصوف الاسلامي ينبغي ان يكون مرورا من ذات البيئة الانسانية ومعاناتها والتعامل معها ، وليس بهجران الحياة وملابساتها .

وهكذا قوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرון مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد) (٢٧) ابراهيم : ١٨ .

س	الكاف
(أعمال الكافرين)	= رمادا اشتدت به الريح في يوم
والتوهم بالخير	عاصف
المشبه	المشبه به (المعلوم)

هل الرماد يشتد به الريح في يوم عاصف قصر على زمان دون آخر ؟ ان المشبه به لهو من التكرار بحيث يبقى ما بقيت الحياة الانسانية على الارض وبذلك فان هذا المعلوم يملك قوة ما للتجربة العلمية من اعادة واثبات ، ناهيك عن قوة الاحساس بها .

ان ارتفاع عمود من الزئبق على سطح البحر هو ٧٦ سم سواء أكان ذلك على البحر الابيض المتوسط أم في نيويورك ، في القرن التاسع عشر أم في القرن الحادي والعشرين . ومن كان في شك من ذلك فيستطيع اعادة التجربة والتيقن من الأمر .

واذا كانت الآية السابقة قد انعقدت منها المعادلة في جو صحراوي يتشكل في اي زمان وفي أي بيئة فان الآية هذه قد اعادت تثبيت ذات

(٢٧) ينظر في تفسيرها بيانا : كتاب الصناعتين ص ٢٤٠ وسر الفصاحة ص ٢٩١ والمعجزة الكبرى ص ٢٦٤ .

الدلالة من خلال مشهد جديد وتصور جديد . وإذا كان منظر السراب مما يعز وجوده في غير الصحاري والمناطق الحارة فإن منظر الرماد والرياح الشديد لهو ألصق بالمناطق الباردة والمناطق الثلجية والقطبية . وهكذا تأتي الآيات تتضافر لتتقدم للعقل الانساني من خلال التنوع والتفاوت غنى في الایحاءات والمقاصد والتعبير . وهذا يغري الشادي وراء الأسرار الإعجازية ان يسعى الى تفسير القرآن الكريم بالقرآن فهو نظام متكامل يرتبط ببعضه ارتباطا عضويا وثيقا . وان بدا احيانا من لبس أو غموض من بين مقصد وآخر – كما اختلف الناس بين القدرية والجبرية مثلا – فان ذلك ناشيء عن طبيعتنا القاصرة التي تعجز حتما عن عبور الأسرار جميعا والاحاطة بها من كلياتها . ولا جرم ، فان سمعنا محدود ضمن بعد لا نجاوزه وبصرنا محدود ضمن رؤية معينة (٢٨) وكذلك مبلغنا من العلم والتفكير . ولنتفكر أحدا أن لو أُنِيج للناس ان يكونوا بعيون اكثر تكبرا بمئات المرات او دون ذلك بكثير أو أن يكونوا بقدرات على التنصت اكثر هولا ، هل تظل نظرتنا للأمور ذات النظرة ويبقى التصور ذات التصور ؟ وهو الأمر عبر عنه رب العالمين في قوله : (هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) آل عمران : ٧ .

جاء في تفسير محيي الدين بن عربي للآية الكريمة ان الحق الالهي كل متكامل وان هذا ينعكس على النفوس المتفاوتة في الرغبة والطاعة والاستعداد ودرجة الصفاء انعكاسا متفاوتا فمنهم من يرى جزءا ومنهم من يرى اكبر ومنهم دون ذلك وهكذا يتكثر التفاوت بتفاوت الصفاء والاستعداد كانعكاس أشعة الشمس الواحدة على المرايا المتعددة . فبقدر ما تكون هذه من اللعان والصقل بقدر ما يرى شعاعها صفاء ونفاذا . من هنا

(٢٨) انظر في امثلة ذلك : البدء والتاريخ ج ١ ص ٢٢ .

فان درجات الاستعداد الفاصرة تظن ان في الرؤية تناقضا أو عدم اتساق بينا التناقض وعدم الاتساق هما نتاج عدم الاستيعاب ونفاذ الفهم وقصور الأداة . وهكذا تشتبه على هؤلاء الحقائق ويذهبون فيها معاجزين بينا المؤمنون تتوحد فيهم الأبعاد وتندغم لديهم الأمور وتبدو وحدة الرؤية الكلية . فان استطاعوا أن يحلوا مغاليقها فيها ونعمت ، وان لم يستطيعوا وهو الأصح - لعجز قدرات الانسان وأدواته ، فانهم يسلمون أن ثمة لا تناقض وانما هو تناغم وانسجام ويرجئون ما استغلق عليهم من فهم الى وقت يرجونه ، أفي الدنيا كان ذلك أم وقت لقاء وجهه الكريم . ان الموحدين كما يقول ابو زيد البلخي يعرفون ربهم ولا يعلمونه (٢٩) بل ان عدم الاختلاف في القرآن الكريم لهو في الأسرار المعجزة التي تظل تضج القدرات البشرية في دوائر العجز والتقصير . قال تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) النساء : ٨٢ . وفي وقت تفيض فيه الدنيا كل عام بمؤلفات ضافية من وحي القرآن الكريم ومن علومه وتحت رايته وفي تقصي أسرار وارتداد آفاقه ، وفي وقت نجد أن المكتبة القرآنية هي الأخصب والأغنى في كل ما أوحاه أي كتاب من دراسات وبحوث ، فان أعمال عمالقة كبار في التاريخ الانساني كسبت أنصارا كثيرا ثم لما ان تقدم بها الزمان شاخت وهرمت الا كتاب الله تعالى فانه يزداد مع كل نضج علمي أو بعد زمني شبابا وتألقا ورواء . ويكفي ان نشير الى فضل أرسطو طاليس على الدراسات الفلسفية والأدبية والبلاغية والجمالية وأثره في الشرق والغرب . ومع ذلك فقد كان أرسطو طاليس يبني مملكته العلية على فرضيات وبديهيات هي الآن خاوية على عروشها أمام طلبة المدارس الابتدائية . كان أرسطو يرد الوجود الى عناصر اربعة او اسطقسات اربعة هي الماء والهواء والنار والتراب . وجاء العالم الانجليزي كافندش ليثبت بالتحليل الكهربائي ان الماء مركب من الهيدروجين والاكسجين بنسبة ٢ : ١ . وتبين الهسواء نيتروجين وأوكسجين وثاني أكسيد الكربون وأعدادا لا حصر لها من العناصر الغازية والمركبات

(٢٩) البدء والتاريخ ج ١ ص ٢٢ . ويقول ابو زيد البلخي ان العلم الاحاطة بذات الشيء عينه وحده . والمعرفة ادراك ذاته وثباته وان لم يدرك وحده وحقيقته . ان الموحدين يعرفون ربهم ولا يعلمونه .

الغازية • وبأن إن النار طاقة وإن التراب خليط من عناصر ومركبات كثيرة • فهل زاد علم أرسطو مع تقادم الزمن تماسكا أم قد بان فيه اختلاف كثير ؟

وذهب أرسطو الى أن الكواكب هي حية ولها النفوس ناطقة ، وقد عطف على ذلك العالم الطبيب الفيلسوف الرئيس ابن سينا فقال إن الكواكب هي العقول الاولى في نظامه العشري في نظرية الفيوض • وها قد جاء العلم الحديث ليثبت عمليا مذ وطئت قدما أرمسترنغ أرض القمر أن الكواكب ليست الا أرضا لا تملك لنفسها ارادة وانها دون الارض حياة واعتبارا • وقد اعتذر البارون كارل ديفو عن ابن سينا بأن معطيات عصره العلمية هي التي قد خذلته •

وسواء أسقط أرسطو وابن سينا من تلقاء أنفسهم أم من خلال معطيات عصرهم فإن امرا واحدا لا نعدوه وهو تقرير ان العبقريّة الانسانية هي في دائرة الاختلاف والعجز مهما اوتيت من مدد فكري وحضاري • ولا نعني بالاختلاف ان يكون ثمة تناقض في البناء الواحد ولكن الاختلاف يعني ان يكون مخالفة للحق وواقع الأمر • بقي أن نشير الى أن أبا زيد البلخي (ت ٣٢٠هـ) في بداية القرن الرابع الهجري وقبل ألف عام من ارتياد الفضاء والنزول على الكواكب قد أسقط دعوى أرسطو في نظريته وسخر منها (٣٠) ، أو ليس قد عرف ذلك من خلال الصفاء الذهني دون أن يعلمه - على حد تعبيراته - •

وكأعمال أرسطو وابن سينا كانت هندسة اقليدس قد بلغت حدا في التناسب الفني والتسلسل المنطقي تطاول قرونا كثيرة • وبدا هذا الصرح المرمود يميل ويهوي أمام تشكيك العلماء في البديهيات التي قد اعتمدها اقليدس وبخاصة بعد اكتشاف الهندسة الفراغية • وما بني على فاسد فهو فاسد ، عقليا كان أم غير ذلك • وهذا المتنبي فحل الشعراء العرب والذي تناول ديوانه بالشرح والتفسير والتعليق اكثر من ثلاثمائة

مؤلف يسقط في المواضيع المختلفة ويعتريه الكلال والوهن ويسقط من ديوانه الكثير الكثير وفيه من الهنات والغمزات والسقطات كثير . حتى ماركس أبو المذهب المادي في تفسير التاريخ والذي يعتبره العالم المناوىء المتراس الأخير لصد العالم الاسلامي بل وغزوه - وفي شبابنا وأقلياتنا سماعون لهم - مات وفي نفسه شيء من حسد محمد صلى الله عليه وسلم . بل أكثر من ذلك فان ولييم والمان William Wolman المحلل الاقتصادي في مجلة Business Week يقول : ان منافس ماركس الوحيد هو محمد (صلى الله عليه وسلم) . ويكفي شاهدا على ان ماركس سقط أخيرا من خلال الردة في أفكاره ومن خلال خروج تفسيراته عن مسارها ومن خلال الصراع بين الأحزاب الشيوعية في العالم ومن خلال الاختلاف بين تقديراته وتنبؤاته وبين الواقع . وهكذا يسقط من يتناول ليرى محمدا (صلى الله عليه وسلم) وهو الرجل الأمي في جزيرة قاحلة عام ٦١٠م منافسه الفكري الوحيد وبطل الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم يكسب المعارك الفكرية ويؤلف قلوبا جديدة في عواصم الفكر وبلاد المذاهب الالحادية .

ولو أن هذا المتنبي الجديد صدق نفسه وفاء الى رشده لبشر بان كثير المنافسة ليست قائمة الا في وهمه ، وان الاتساق في هذا الفكر وسحر الألباب ليس هو قول البشر وانما هو القول المعجز .

ومن خلال قنطرتي التشبيه بين أعمال الكفار وبين السراب الذي لا يحوي قطرة من بل الصدى وبين أعمال الكفار وبين ذرات الرمال التي تشتت بها الريح جريا في اليوم العاصف يتضح للمؤمن ان أملا في أن يجد هؤلاء حسنا على بعض أعمالهم الدنيوية أو أن يجدوا مرتقا غير كائن . ان هاتين الصورتين اللتين يحلو للمرء ان يشاهدتهما ولو من خلال المطياف ستبقيان تعطيان المسلم المدد الثقافي والفكري لقوة اليقين وثبات العقيدة ووضوح المواقف بل والغاء الأوهام الكاذبة وشباك المغالطة والتدليس

والطابورية الخامسة عبر صدقات مشبوهة واحسان مكذوب ومعوكة
مبطنة .

ان المسلم الملتزم بعقيدته ليعبر منطق الله تعالى عبر سبع سموات
— وهو من خلال بيئته في الحر او القر — يترجم عن ارادة رب العالمين
وموازينه ومقاصده . ان المسلم الملتزم بعقيدته المقبل على ربه بالطاعات
عبادة وتفكرا وتدبرا يقترب ليكون سميع الله وبصره . وهكذا تظل بيئة
الانسان في غناها وتنوعها واختلافها هي الآيات الربانية التي تذكر المسلم
اذا نسي وتحجب اليه الايمان وتزينه في القلوب وتغري بالخالفين والناكبين
والقاسطين ترصدهم وتكشف مواقعهم وتحول دون الانخداع بمسلسلات
أباطيلهم وصيغ مشروعاتهم .

ثم ان الطبيعة تبدو من خلال التصور الاسلامي حبيبة المسلم ومتحرك
الكثير من أسرار عقيدته ، وخفايا حكمته . بل ان الطبيعة ستبقى في
عيني المسلم جدة تلمع ، وكأنها حديثة العهد بربها ، فهي حاملة الاسرار
وهي الموحية بالأسرار ، وهي الامينة على الاسرار (٣٢) . وأين ذلك ممن
حرموا هذه النعمة فعموا وصموا ، وعموا وصموا ، واقبلوا على المسكرات
والمخدرات ، وعكفوا على الشهوات ، وألغوا سمعهم وأبصارهم ودمروا
أنفسهم ومروا عن الدنيا وكأنهم لم يروها .

ان المسلم وهو يتلو قوله تعالى : (ان في خلق السموات والارض
واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ،
وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من
كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات
لقوم يعقلون) سورة البقرة : ١٦٤ ليحس وكأنه يعيش في مناخ الحركة
والنشاط الدأب (الديناميكية) الذي لا يكاد يغفل عن صفحات الكون

(٣٢) من كلام الامام علي رضي الله عنه : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجا لمن فهم
عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مهبط وحي الله ، ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ،
ومنجر أوليائه : ربحوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنة . الجمان ص ٨٠ .

الدائمة التحرك انه يحس وكأنه ينبغي ان يعيش كل لحظة من حياته في التفكير والعمل والبناء والاقبال على الله تعالى بنفس واثقة وخطى متزنة ، وصدر منشرح .

وقوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثلله كمثل الكلب ، ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦ .

الكاف

س =

مثل الكافرين في عدم اهتدائهم = الكلب يلهث في حالي زجره وتركه الى الله بلغوا الاسلام
أم لم يبلغوه . وأحوال الكافرين
وكيف تعتمل نفوسهم أمر يطالع
عليه من يعلم السر وأخفى ويطلع
على الافئدة وما تخفي الصدور

واضح من قوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه ٠٠٠ الآية) حاجة القرآن الكريم الى السنة النبوية المطهرة لاعطاء المزيد من البيان وواضح من ايراد القصة (٣٣) والتعقيب عليها بالقول : ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا - ان العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قالت الفقهاء .

(٣٣) قبل ان صاحب القصة هو بلعم بن باعوراء من علماء بني اسرائيل سئل ان يدعو على موسى واحدي له سيء فدعا فانقلب علمه واندلج لسانه على صدره فأدركه الشيطان فصار قرينه . انظر تفسير الطبري والنسفي وابن كثير والجلالين . وقد وردت اسماء أخرى للقصة في مواطن متعددة من كتب التفسير . وفي رواية أخرى نزلت في أمية بن أبي الصلت انظر الفخر الرازي وابن كثير والبغوي وأسباب النزول للواحدي) . وفي رواية : أبو عامر الراهب او الوليد بن المغيرة . (انظر في ظلال القرآن) .

نحن أمام توظيف جديد لعناصر البيئة الانسانية وفتح باب من المعلوم على المجهول . ان نفسية الكافر وما يدور فيها من تهويمات وما يعمل فيها من أفكار أمر يجهله المسلم لانه لا يعلم ما في الصدور ، ولكن المسلم يعلم ان الكلب يلهث ان حمل عليه ويلهث ان ترك واللهات دليل ضعف وعجز .

واذاً فان قنطرة تقوم بين أمر كان مجهولاً وهو أمر معنوي وبين أمر محسوس معلوم ، وهكذا يغدو التشبيه في القرآن الكريم تقريباً الى المسلم وشرحاً وايضاحاً وقوة برهان ، ثم ان هذا المعلوم أمر محسوس موجود في كل زمان ومكان ، كان على زمن نزول القرآن الكريم وهو قائم اليوم ، ومن ثم فان هذا المعلوم للمتشبه لهو في قوة اعادة التجربة العلمية ، وبذلك تبقى به قائمة الحجة .

وفي التشبيه الدليل للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين أن قطاعاً من الناس سيظل في دائرة الكفر ، اذ مهما انتشر الاسلام ومهما امتد وضرب بجرانه ، فان اناساً سيبقى أمر اهتدائهم الى الدين - أباللبن كانت الدعوة ام بالعنف - غير قائم وذلك لانهم ألغوا أدوات الانتفاع والاهتداء واتبعوا الهوى . قال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) الأعراف : ١٧٩

وفي التشبيه التأييد المعنوي للمسلم الذي له المثل الحسن في مخلوقاته واين منه حال الكافر والتقاؤه ولهات الكلب على صعيد واحد . ان هذا التقزز الذي لا يخفى على كل انسان سيظل يعيد الى نفسية المسلم شعور الزهو والزكاة النفسية وتعاليه على الكفر مهما تقلب في البلاد وتهندم من لباس وارتفق من آلات وأدوات وأوان . ان لهات الكلب سيظل ينادي على هؤلاء بالذلة والخسة وسيظل للانسان المسلم التعزيز بالمضي قدماً في حسم المواقف لصالح الرؤية الاسلامية التي تنعقد منها خيوط السماء بخيوط من الارض عبر قناطر التشبيه ومعادلاته .

واذا كان الكلب قد جاء في هذا السياق في المثل غير الحسن ، فان هذا معني به الانسان وحده لان الأمور بالنسبة اليه ، والمعاني من خلاله . ومن يدرينا لعل اللهات في الكلب لدى الكلاب من صفات الكلوبة كما الشاربان من صفات الرجولة . وها هو الكلب يأتي في سياق الصيد في موقف الاعزاز (يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله) المائدة : ٤٠ .

انها اللفظات الفنية التي تعزز المعاني والمقاصد وتوظفها في خدمة النص . وهكذا تقوم القناطر باستمرار ما بين المعاني والنصوص من جهة وبين عناصر البيئة المحلية من جهة اخرى ، بل تكاد ترتبط هذه بأمور ذاتية لكل فرد . فالذي يربى كلبا يعقد في أم أفكاره مشابهة بين الكافر وبين كلبه والذي يرى كلب الجيران العملاق تقوم قنطرة المشابهة مع هذا الكلب والذي يرى كلب الجيران القمى تنعقد المشابهة من خلاله والذي يرى الكلب في بلد دون غيره تنتظم في ذهنه عقود المشابهة بين الكافر وبين ما يعرفه عن الكلب او لنقل وبين معطياته الثقافية ومدركاته . ومعنى هذا ان القرآن الكريم سيبقى يثير في كل نفس عوامل ذكريات ومعطيات ذاتية وسيكون الاحساس بالمعاني متفاوت الطعوم والنكهة والتأثير . وهذا ما يجعل آيات الله تعالى ترتبط في النفس الانسانية بروابط حية ونامية . وهذا في الأسرار التي تظل تجعل القرآن الكريم حيا في النفوس في كل زمان وجيل ، وتظل أمثلته قادرة على تحريك المشاعر والوجدانات لجميع الناس كل في عصره وموقفه ومتفاوت حظه من الثقافة والمعرفة ، ناهيك عن الجودة التي تذكي العيون فيظل كل ما في الطبيعة من ظواهر يستأهل أن يدرس وان يكون موضع تأمل - في الخير الظاهر بان أم غايه . وما نطن أن أحدا يقرن بين المثليين : الكافر في تأبيه ونكوبه وكتب معين في لهائه - يمكن لذاكرته ان تغفل هذا المعنى او النص الذي ارتبط به لسنوات كثيرة - وهو في العوامل التي تيسر القرآن للذكر والذاكرة . بل ان كل كلب او صورة كلب تقع عليه الانظار سيكون في المفاتيح التي تذكر بالمعنى والنص واستلهام المواقف منهما - المواقف التي تنعكس على طرائق التفكير وانماط السلوك . انه

تثبيت المقاصد والمعاني من خلال التعزيز بالحسيات ، وهو أمر يزيد الغنى الثقافي والبيئي والحضاري وضوحا على وضوح .

التشبيه في القرآن الكريم :

وصدورا عن ذات المعادلة وهو فتح باب من المعلوم على المجهول ، وفتح باب من المدرك على الغيبي فاننا سنعيش لحظات سعيدة مع مواقف تشبيهية في القرآن الكريم ، مستفيدين مما سبق الى التنويه به والوقوف عنده أعلام كبار ، وأسلاف أفاضل ، كأبي الحسن الرماني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ و كآبي هلال العسكري المتوفى ٣٩٥ هـ والباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ في «اعجاز القرآن» ثم الخفاجي في «سر الفصاحة» وابن ناقيا البغدادي ت ٤٨٥ هـ في تشبيهات القرآن وضياء الدين بن الاثير في «المثل السائر» وعمدتنا في الأصول والكلديات الامام عبد القاهر الجرجاني في «أسرار البلاغة» و «دلائل الاعجاز» .

وسنضرب صفحا عن تقسيمات الرماني والعسكري التي يتداخل بعضها في بعض (٣٤) مكتفين بالوقوف عند الكلديات التي قد علم عليها الامام عبد القاهر أو عند احياءاتها . وفي هذا ما فيه من حد جموح النفس الى التعلق بمصطلحات التقسيم والتبويب والآلية التي تجفف الرواء وتذهب بالمائية . وفي هذا : التعامل مع النصوص القرآنية وكأن كل نص في نسقه هو نسيج وحده ، وهو النكهة الخاصة ، والقيامة الذاتية ضمن المناخ القرآني العظيم . وفي هذا ما فيه من نشوة التعامل الجمالي وتتبع أنساق الكلم في مواقعه الكثيرة وغنى الاستيحاءات من النص الحي الناطق المتفرد في الخلق والمجاورة .

وقوله تعالى : (له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين الا في ضلال) الرعد : ١٤ .

(٣٤) انظر في ذلك : اخراج عالم تجربه العادة الى ما قد جرت به عادة . المعجزة الكبرى ص ٢٦٧ .

الكاف

= بسط الكفين الى الماء للشرب

= حسبي

س

عبادة الأصنام

وتوهم الاستجابة

معنوي

ان الذين يعبدون من دون الله تعالى ويتعلقون بأوهام الاستجابة وتلبية الرغبات وهو أمر يتصل بالمعتقدات الذاتية لكل انسان ودرجات الوضوح في معتقده وهو الأمر النفسي المعنوي الذي لا يقف على دخيلته الا رب العالمين الذي يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور لكالباسط كفيه الى الماء ليبلغ الماء فاه وما هو ببالغه وهو أمر محسوس موجود في كل بيئة وفي كل زمان . وهكذا يكتسب المجهول لدى المسلم قوة الوضوح من خلال المعلوم المحسوس الذي له قوة التجربة العلمية في التحقق والتثبت والمعاينة . وهنا أيضا يرتبط التشبيه بغنى الايحاءات المتصلة بالبيئة الجغرافية لكل فرد . فأهل الأنهار يتصورون المنظر من خلالها وعلى حوافها وأهل مياه الجمع فكذلك ، وغيرهم ممن تختلف عندهم وسائل التعامل مع الماء .

يقول سيد قطب : وهي صورة تلح على الحسن والوجدان ، وتجذب اليها الالتفات ، فلا يستطيع ان يتحول عنها الا بجهد ومشقة ، وهي من أعجب الصور التي تستطيع ان ترسمها الالفاظ : شخص حي شاخص باسط كفيه الى الماء ، والماء منه قريب ، يريد ان يبلغ فاه ، ولكنه لا يستطيع ولو مدة فربما استطاع ! (٣٥) .

ولعل الإشارة بوجود الماء لدليل على وجود غريزة التدين والاقرار بالعبودية لدى الناس ولكن هذه الغريزة لا تجد الطريق الى ازواء الغلة لتكوب الأسلوب الصحيح* . وهكذا لا يستطيع ان يشرب من الماء من

(٣٥) التصوير الفني في القرآن ص ٣٥ .

★ لقوله تعالى (ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى) الزمر : ٣ .

كان على مقربة منه . ومن لم يحسن ان يغرف بيديه لان الماء لا يثبت على الكفين المبسوطين . فكذا من راموا التعبد ولكنهم ضلوا الطريق الصحيح اليه .

وقوله تعالى : (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا او نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) يونس : ٢٤ .

الكاف	س
= ماء السماء + اختلاطه	مثل الحياة الدنيا
بأنبات + . . .	وهو أمر معنوي
وهي أمور حسية جرت العادة بمثلها .	

وهنا انعقدت معادلة التشبيه بين أمر معنوي هو مثل الحياة وبين لوحات ومناظر طبيعية نسق بعضها على بعض . وهذه اللوحات كلها مما تألفه البيئة الانسانية وما جرت العادة بأمثاله . وسيكون لنا وقفة عند الآية القرآنية الكريمة عند الحديث عن التمثيل ان شاء الله تعالى .

وقوله تعالى : (انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) سورة القمر : ١٩ ، ٢٠ .

مجهول	معلوم
س	كأنهم
= أعجاز نخل منقعر	
طريقة اهلاك قوم عاد ،	
وهو أمر مغيب عنا	

أهلك الله تعالى قوم عاد بالريح التي تقلع الناس وتقتلهم . ولما كان هذا المشهد الرهيب هو طي الزمان السحيق ولا يحيط خبرا به الا رب

العالمين الذي أودع كل سر كتابه ، فان قنطرة المشابهة تنقل اليها مدينة الاشباح وآثار القوم عبر صورة حسية مألوفة ومعلومة تجري العادة بمثلها وتتوفر في كل زمان ومكان ينبت فيه النخل . وكلما دقق المرء في موحيات المشبه به كان أقرب الى استجلاء الحقيقة التاريخية والأحداث الماضية . وهكذا تنقل أسرار الماضي ، وإشراقات المستقبل ، وموازين الحق عبر صور حسية لها قوة التجربة ، وإعادة التثبيت ، والتحقق . وهكذا يصبح التفرس في الوجود استلهاما للماضي واستشرافا للمستقبل وعبوراً الى غير المدرك وهكذا يصبح التفرس في الوجود تفكراً وعبادة يقترب بها المرء من ربه ويزداد معرفة به .

ولا مشاحنة في ان لكل لفظة في المشبه به إحياءات غنية دالة ، وكلما أتيح للعقل نضج علمي ظفر بأسباب وضوح أعمق وأشمل . وليتح المرء لنفسه تصور بستان من النخل فيه أسراب كثيرة كثيفة ، ثم ليتصور بين هذه الأشجار أعجاز نخل كثيرة مقلوعة . وقد جرت العادة حين القلع ان يحفر حفر عميقة لأن تأود النخلة في الأرض كبير . ولو أتيح للنخلة أن تطلع من جذورها لتركت موضعها حفراً . أضف الى هذا منظر هذه الأعجاز قشرة ميتة خالية من الحياة ، والصمت الرهيب الذي يتداخل فيه منظر النخل الميت مع السيقان الحية وما يشوبه من ظلال شجر النخيل في نهار مشمس او في ليلة قمراء . ان هذا المنظر هو بحق مدينة أشباح وهو صورة الصمت مع تناثر الاشلاء والحطام . ولو أتيح لانسان ان ينظر بعيني طائر الى مصارع قوم عاد وحالهم بعد أن غادرتهم الرياح بعد الهلاك او لو ان صورة كلية التقطت لهم من الجو لكانت الصورتان متقاربتين في الشبه والظلال .

أما لماذا كان التشبيه بأعجاز النخل دون أعجاز الزيتون أو التين مثلاً ؟ ان ذلك لما يتصل بحقيقة الأمر وقرب الشبه . هل جائز ان القوم كانوا طوال الاجسام بما يجعل وصفهم بالنخل أقرب ؟ ان هذا على الأقل ما توحي به الدلالة الهامشية للالفاظ . واذا قارنا هذا الوصف لقوم عاد بوصف آخر في موضع آخر من القرآن الكريم نجد ان القرآن يفسر بعضه

بعضاً • ففي سورة الأعراف جاء قوله تعالى في وصف عاد : (وزادكم في الخلق بسطة) ٦٩ •

وان كتب التفسير وأخبار الماضين تحدث بذلك واذن ففي اختيار النخل احياءات تغني جوانب الصورة • ثم ان قوله تعالى تنزع الناس لهو أمر موح ايضاً • ولم تجر العادة ان تصل الرياح حداً من السخط تدخل البيوت والأكنان وترفع الناس منها بقوة ثم تلقيهم على الأرض جثثاً هامة • وها نحن بدأنا نسمع عن قتابل النيوترون التي لها قدرة قتل السكان دون المساس بالملكات • ثم نحن قد قرأنا عن القنابل الارتجاجية التي تقتل الناس بالذبذبات العالية التردد • ثم هل نستطيع أن نستوحي ان قوله تنزع الناس دليل على أن قوم عاد كانوا يتمرسون بخنادق وسرايب أرضية وصخرية ؟ ان اللفظة القرآنية تحمل احياءات كثيرة على هذا السبيل • وقد أكد هذا احياء القرآن الكريم في سياق آخر حين ذكر رب العالمين قوله : (واذكر أخا عاد ، اذ أنذر قومه بالأحقاف) الاحقاف واد • الاحقاف : ٢١ • وقوله تعالى (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم) الاحقاف : ٢٤ •

ويقينا لو ان ظفر الناس بصورة صادقة عن اخبار الماضين اذا لكان لتفسيرنا البياني نشوة أكثر تطريفاً • وبقيني أن لو يتاح للعالم الاسلامي ان يرصد لهذه القضايا المنح والأرصدة لتفتقت أذهان مسلمين غياري ومنقبين عن وقائع تستهدي بالتفسير البياني وتحقق المزيد المزيدي على طريق الاستجلاء والاستيضاح • وان المسلم مأمور أن يبحث وأن يتدبر وان يسافر وان يأخذ العبرة من الأقوام السابقين ومستعمراتهم ومصانعهم •

وأصول النخل المنقعر هل تعني أن هذه الرياح كانت تنشف أمعاء الجسم وأوعيته الداخلية بحيث تبقى الجثث وكأنها شن • وتكون بذلك الجلود قد يبست وبانت الجثث اسطوانات خفيفة فارغة • ان هذا على الأقل ما يوحيه انقعار أعجاز النخل • وقد رفدت كتب التفسير هذا احياء عندما ذكرت ان الرياح كانت تدخل من مناخر قوم عاد وتخرج من أذبارهم •

وقوله تعالى أعجاز نخل دون التحلية بأل اشارة الى ان بعض أشجار النخل هي الملقاة وليس جميع الشجر في البستان الواحد . وهو أمر معلوم تجري به العادة ويألفه الناس الذين لهم بزراعة النخل ارتباط . او يعني وجود أعجاز ميتة بين شجر قائم وأخذ صورة كلية لذلك عن بعد ان الناس من قوم عاد قد أهلكوا في وقت ظلت فيه دورهم قائمة ومساكنهم سليمة ؟ ان هذا حتما ما توحيه دلالات التشبيه ، وان هذا الإيحاء نستيقن من صحته بما أكده رب العالمين في سياق آخر عن عذاب قوم عاد . قال تعالى : (فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين) الاحقاف : ٢٤ ، ٢٥ .

هكذا يزداد المسلم معرفة بربه وآياته وأسرار الوجود كلما أدهف انسمع وحدد البصر وأخلص الانقياد لله تعالى . وهكذا تتراءى الدنيا للمسلم دار العبور التي تغني المعرفة وتقوي منه التدبر وأخذ العبرة . قال تعالى : (من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) والعَمى ليس عمى البصر ولكنه عمى البيئة والمدرجات . وهكذا تنطبع أسرار الوجود والمقاصد العلوية في نفس المؤمن حتى لتصبح انطباعاته الأولية فراسة والمعينة . أوليس الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (اتقوا فراسة المؤمن ، فانه ينظر بنور الله) ؟

وقوله تعالى (فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) الرحمن :

٣٧ .

وردة : محمرة ، الدهان : الأديم الأحمر .

الكاف

= الدهان (حسي معلوم)

س

حال السماء

يوم القيامة

وهو أمر مغيب

ومجهول

في الآية الكريمة تنقل الى المسلم أسرار أحوال السماء يوم القيامة وهي صورة مستقبلية ما كان لأحد أن يستبق معرفتها ولا يملك تجلية الأمر حولها . وهي تنقل الى المسلم عبر مشبه به محسوس معلوم منتزع من البيئة الانسانية وهذا المحسوس المعلوم في كل زمان ومكان فهو له قوة التجربة العلمية من حيث الاستحكام .

ان وجه انشبه بين الأمرين هو الاحمرار والصقل فكما ان الدهان يكون صقيلا املس لا نتوء فيه ولا خشونة فكذلك تكون السماء يوم القيامة . وهي صورة تسبق الى ذهن المسلم فتكون لديه فراسة في الوقوف على أسرار الوجود والتفرس في الأحوال المختلفة عبر احياء التشبيه المنتزعة من البيئة المحلية . وهكذا يستطيع أفقر المسلمين بيئيا ان يكون على فراسة وحكم على الأمور أكثر صوابا من علماء على غير الاسلام ولا اهتموا بهديه أو تدبروا آياته .

وقوله تعالى : (اعلّموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) الحديد : ٢٠ .

الكفار : الزراع ، يهيج : ييبس ، حطاما : فتناقا .

الكاف

= مطر (هذه حالته)

س

مثل الحياة الدنيا وتصرم نعيمها

وهو أمر لا يعلم ماهيته الا الله

تعالى الذي يحيط بالزمان والمكان

جاز المسلم الى ماهية الحياة الدنيا ومآلها وهو أمر معنوي عبر قنطرة التشبيه التي وصلت المعنوي بصورة معلومة محسوسة موجودة في البيئة الانسانية كل زمان ومكان . وهكذا تنعقد المعاني القرآنية والحكم الربانية عبر البيئة الانسانية وغنى عناصرها وأحوالها بما يتيح للمسلم

ان يعيش الحياة الدنيا بكل معانيها ليعبر منها الى الآخرة بأوضح ما يكون التصور وأجله .

أما وجه الشبه فهو تصرف النعيم الدنيوي والعرض الزائل . فأما المؤمنون فلا يتعلقون بحظوظ الدنيا ثقة منهم بزوالها وهؤلاء لهم مغفرة من الله ورضوان ، وأما الكافرون فينتعلقون بهذه الحظوظ التي وشكان ما تصبح حطاما كأن لم تكن وهؤلاء لهم في الآخرة عذاب شديد .

وقوله تعالى : (سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) الحديد : ٢١ .

الجنة
الكاف
س = (السماء + الأرض)
وهو أمر غيبي يتولى تعريفه رب العالمين

ويزيد الأمر وضوحا قوله تعالى في سورة آل عمران (وجنة عرضها السموات والأرض) : ١٣٣ .

يرغب الله تعالى بالفضل وسعة الخيرات في الجنة هذه السعة التي تتناسب طرديا وسعة المكان فقرب الجنة من التعريف عبر مدركات البيئة الانسانية . واذا كان عرض الجنة فقط هو كعرض السماء وهو عرض هائل لا تحده الظنون بل هو عرض متناه بدليل قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون) الذاريات : ٤٧ بدليل ان الشمس على بعدها ليست عنا بأبعد من ثمان دقائق ضوئية فكيف اذا كان في النجوم ما يبعد عنا مئتي سنة ضوئية* ، وان سرعة الضوء هي ١٨٦.٠٠٠ ميل في الثانية أو ٣٠٠.٠٠٠ كم/ث يضاف اليه عرض الارض وهو أمر كبير أيضا ومعلوم ، فمعنى ذلك أن طولها هو حتما في الآماد التي لا يكاد العقل

* اقرب نجم الينا هو الاقرب القنطوري وهو يبعد عنا قدر بعد الشمس عنا بمقدار ٢٧٠ ألف مرة .

الانساني يظفر بنهاياتها اذ من البدهي ان الطول هو اكبر من العرض او يساويه في أقصر أحواله وبالتالي فان مساحة الجنة ستكون في السعة البالغة . ولو تصورنا مثلا طريقا بين القدس والقاهرة وليكن طولها أنف ميل فان عرضها قد يجاوز الخمسة أمتار . وهكذا فان تكثر الطول بالنسبة للعرض لهو امر يتفقت من كل تقدير . وهكذا وظفت البيئة الانسانية والمدركات في بناء تصور عن غير المدركات وعن الغيبيات .

وقوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين) الجمعة : ٥ .

مثل الذين حملوا التوراة

الكاف

= حمارا يحمل أسفارا

س

ثم لم يحملوها ، وهو أمر لا يعلم

حقيقته الا رب العالمين الذي يحيط

بالزمان والمكان

يقرب الله تعالى الى المسلم أحوال بني اسرائيل ونكوبهم عن أمانات التعليم السماوي والوصايا . فكان تناقلهم لبعض صحف التوراة وألواحها من غير ان ينتفع بها كالحمار يحمل كتباً ورقائق الكتابة . والحمار من البيئة كما هي الكتب . وانه لمن البدهي ان يعلم الناظر ان الحمار يحمل انكتب دون ان يفيد منها . وهكذا اجتمع المعلوم المحسوس مع البدهة في تقرير أمر مضى به الزمان عبر قنطرة التشبيه .

وقوله تعالى : (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)

الحاقة : ٧ .

حال عاد عشية موتهم :

الكاف

= أصول النخل الساقطة الفارغة

س

يقرب الله تعالى الى المسلم حال قوم عاد وقد أهلكتهم الريح الصرصر بأصول النخل الساقطة الفارغة . وأصول النخل الساقطة الفارغة أمر متوافر في البيئة الانسانية وموجود في كل زمان ومكان . وهناك من أصول النخل الساقط ما هو غير فارغ . واذن يكون التشبيه بالخواء دليلا على أن قوم عاد لم يكن فيهم من ايمان في حياتهم الدنيا فكأنهم كانوا أجسادا بلا أرواح .

وقوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون) العنكبوت ٤١ .

الكاف

س = العنكبوت اتخذت بيتا يقيها
مثل الذين اتخذوا من دون الله
أصناما يرجون نفعها
وهو تعلق معنوي

• الحر والبرد والمطر •

أعطى الله تعالى للمسلم صورة من اتخذ من دون الله أصناما حجرية أو بشرية يرجو نفعها من خلال صورة العنكبوت اتخذت بيتا يقيها الحر والبرد والمطر ، والعنكبوت أمر كان قائما في البيئة الانسانية يوم نزول القرآن الكريم وما يزال قائما . وهكذا وظفت العناصر البيئية واستخدمت فنيا لنقل الاسرار العلوية والمقاصد الالهية . وهكذا تتسع لغة المدركات عبر جسور التشبيه والمجاز وضرب الامثال وسوق القصص .

وأما قوله تعالى : (وان أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون) فان فيها من مشحون الايحاءات ما فيها . وأيما مسلم يعرف دلالات اللغة ليعلم ان في الآية سرا جاء التنويه به عرضا . وها قد أثبت العلم ان الذي يصنع البيت هو أنثى العنكبوت لا الذكر . واذاً فالتأنيث للعنكبوت ليس تأنيث لغة وانما هو تأنيث ايحاء ودلالة . وقد تبين ان خيط العنكبوت لهو أمتن أنواع الخيوط بالنسبة الى قطره ، واذاً يكون لهذا الوهن مع هذه القوة دلالة علمية كبيرة . وقد دل العلم على أن قطر

الخيط الواحد منها لا يزيد على ثلاثة أعشار جزء من ألف من المليمتر .
أي أنك تحتاج الى ٣٣٣٣ خيط من خيوط العنكبوت ، تجمعها وتصفها في
رزمة واحدة ليصبح قطرها مليمترا واحدا (ملحق مجلة العربي العدد ٢٢٢
حزيران ١٩٧٧) .

ومع متانة خيوط العنكبوت وهندسة بنائه الا ان أساساته من الوهي
بمكان كبير اذ يقوم البيت على متعلقات واهية كورقة شجرة متحركة او
خشبة أو أساس غير ثابت . ومن ثم فان هذا البيت المتين الرائع وهذا
الجهد المنسق لا يقوى على مواجهة المطر او الريح او غير ذلك من أسباب
التحصن ووجه الشبه في الأمرين هو أن الذين يبحثون عن خالق يعبدونه
مثلهم كالذي يملك الخيوط القوية لبناء مستحکم ولكنهم بتوجههم بالعبادة
الى غير الله يكونون كمن ملك مادة البناء القوية ولكنها ترسى على أساس
واه فلا ينتفع من قوتها* . وواضح من التشبيه أن وجه قوة بين هذه
المعبودات وبين خيوط العنكبوت القوية . ومعنى ذلك ان هذه المعبودات
سواء أكانت حجرية أم بشرية أم فلكية لهي في الهيمنة بحيث ألقت في
روح هؤلاء أنها قادرة على الخصب أو الخير أو الشر أو الانتقام كما رأينا
في قصة أخيل في الأدب اليوناني الذي تعاقبة الآلهة بشوكة في قدمه
تودي بحياته ومنها ما بلغ في التناسق والجمال مبالغ شتى كالنجم والقمر
والشمس أو فينوس أو جوبيتر أو زيوس الا ان هذه مهما علت في الهيمنة
فهي على ضعف كما هو بيت العنكبوت .

وقوله تعالى : (وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) الرحمن :

٢٤ .

★ حاول الدكتور مصطفى محمود أن يفسر هذا الأمر علميا فقال ان بيت العنكبوت ليس
بيتا فيه الطمانينة لكنه مصددة يمارس فيها البطش والارهاب حتى ان ذكر العنكبوت
يولى هاربا والا كان جزاؤه القتل . والواقع ان هذا التفسير لا يحمل على الاقتناع لان
ممارسة البطش والقتل من جانب العنكبوت ليو قوة لها وليس وهما ، وكرر ذلك في
صحيفة اللواء (الأردنية) عدد ١٧/٨/١٩٧٧م .

الجوار : السفن الجوار وهنا نابت الصفة عن الموصوف .

المنشآت : المحدثات .

الأعلام : الجبال .

الكاف

= الأعلام

س

الجوار المنشآت

معلوم محسوس

ما كان منها وما سيكون

يمن الله تعالى على الانسان بانه يجري السفن التي تشبه الجبال في البحر . وهنا وان كان طرفا التشبيه من عناصر البيئة الانسانية ، الا أن أحد طرفي التشبيه خفي والآخر جلي . اما وجه الخفاء في الاول فهو في عدم الوقوف على ما سيكون من أمر هذه الجوار في مستقبل الزمان من حيث حجمها . وهنا نحس أمام هذا التشبيه بعظم القرآن الكريم وجلاله ، فان القارئ لهذه الآية ليحس ان مستقبل البشرية كان ينبى عن بناء سفن تضارع الجبال العظيمة حجما واتساعا . وها هي ناقلات البترول العملاقة لهي في الواقع الذي كان يجاوز تصور الاجيال السابقة وهي في مزيد . واذا لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم السفن في حجم الجبال فان هذا التشبيه كان نقلة ايجابية الى ما يتسم به الله تعالى من منن على العقل الانساني ، هذه النقلة التي تنجلي بوضوح أكبر كلما أتيج بعد من الزمان أكبر . وهكذا تكبر الحجة على العقل الانساني كلما ازداد العقل الانساني نضجا ومعرفة . وفي ذلك يقول الخفاجي : شبه الشيء بما هو أعظم منه على وجه المبالغة (٣٦) .

وانا لنستبعد هذا التفسير ونستبعد ان يكون في المنهج القرآني في التشبيه مبالغة وانما هو التطابق بين صورة خفية وصورة جلية ، بين عالم غيبي وعالم حسي ومدرك وهو ما يتسق في كل ما فسرناه بيانا ونفسره .

(٣٦) سر الفصاحة ص ٢٩١ .

وقوله تعالى : (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم)

س : ٣٩ •

كالعرجون : كعود الشماريخ اذا عتق فانه يرق ويتقوس ويصفر •

الكاف

خفي

= معلوم العرجون القديم

س

يقرب لنا رب العالمين أحوال القمر ودخوله في المنازل المختلفة حتى يدق ويكاد يخفى بالعرجون القديم • والواقع ان للتشبيه في هذه الآية الكريمة ايحاءات مكثفة • فالقمر في تقوسه لهو شبيه بالعرجون القديم من حيث تقوسه • والعرجون القديم ذاو لا حياة فيه وها نحن قد وجدنا القمر خلوا من الحياة وهو أمر كان على الناس في الماضي خفيا (٣٧) • ودلالة أخرى وهي ان القمر يتناهى في الصغر التناهي يدق عن البصر ولكنه في حقيقة الامر لا يفنى وهي اشارة الى الظواهر الجغرافية ما كان أدعى العلماء المسلمين الى أن يستجيبوا لها لو لم يشغل العالم الاسلامي بعد القرن الرابع الهجري بفتن سياسية لا تزال شرورها تكبر وتزداد •

وقوله تعالى : (وحور عين • كأَمْثال اللؤلؤ المكنون) الواقعة :

٢٢ ، ٢٣ •

الكاف

= اللؤلؤ المكنون

س

حوريات الجنة

= أمرا معلوما محسوسا

وهو أمر غيبي

والحور : شدة سواد العين في بياضها

عين : عيون نجل واسعة

المكنون : المصون ولكن هو المستر

(٣٧) سبق الى هذه الاشارة د. مصطفى محمود في المهم العصري للقرآن الكريم •

قول الله عز وجل : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) سورة النور : ٣٩ فأخرج مالا يحس الى ما يحس ، والمعنى الذي يجمعهما بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة . ولو قال : يحسبه الرائي ماء لم يقع موقع قوله «الظمآن» لأن الظمآن أشد فاقة إليه ، وأعظم حرصا عليه (٣٨) ان الظمآن هو الذي يقامر بحياته في سبيل وهم ولو بلغ الجزء من المليار ذلك أن أي شيء أحسن من لا شيء وهو الموت المحقق .

الكافرون يحسبون ان ما ينفقون من أموال في المشروعات الخيرية او مساعدات للمحتاجين او تظاهر بذلك على الأقل انها ستقربهم الى الله زلفى . وهنا اشارة الى الكافر الذي يظن ان عفو الله تعالى بعد ضلال وهذا لن يجد ريا الا من خلال الاسلام . والله تعالى الذي يزن الأمور جميعا ومالك يوم الدين ، يقرر في وضوح لا لبس فيه ، ان ظن هؤلاء في النجاة كظن الظمآن يرى السراب فيحسبه ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب .

الظن والتقدير لدى الكافرين هو أمر عقلي ونفسي لا تطاله الحواس . ان الله وحده هو المطلع على الأفئدة وهو الذي يعلم ما توسوس به النفوس الكافرة . ان هذه الوسوسة هي (س) او المجهول الذي لا يعلمه المسلم . انكاف هي أداة التشبيه .

الكاف	المشبه
= السراب في القيعان	س
يشبه الماء ولا ماء	التوهم
المشبه به = معلوم	بالخير
التوهم بالماء (محسوس)	المجهول
	معنوي

(٣٨) كتاب الصناعات ص ٢٤٠ سر الفصاحة ص ٢٩١ المثل السائر ج ٢ ص ١٣٠ .

واذاً يعبر المسلم الى نفسية الكافر من خلال المدركات التي تتواجد في بيئته وما يقع عليه حسه . ان التشبيه هو القنطرة التي يتم عليها نقل المعلومات من المعلوم الى المجهول .

وقوله تعالى : (ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) الدهر : ١٩ .

بصفة الولدان لا يشيبون .

حسبتهم

= لؤلؤا منثورا

س

لقطة من مشاهد الجنة (معلوم محسوس)

يقرب الله تعالى منظرا من مناظر أهل الجنة فيبدو القائمون على خدمة المؤمنين في نظرة كلية ولنقل بعيني طائر كاللؤلؤ المنثور . ووجه الشبه لا شك هو صفاء البشرة ونقاؤها ونظافة الثياب وصفاء الآنية ثم التوزع على الأماكن المختلفة . ومع كل هذه الايحاءات سيبقى المشبه منجما لا ينضب من حيث غنى الايحاءات ودلالاتها .

وقوله تعالى : (انها ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر)
المرسلات ٣٢ ، ٣٣ .

النار ترمي بشرر كأنه القصر في عظمه وارتفاعه .

والجماليات جمع جمالة جمع جمل .

الكاف

شرار جهنم

= القصر

س

كان

= جمالة صفر

شرار جهنم

شرار جهنم صورة غيبية تأخذ وضوحا لدى المسلم من خلال التشبيه بالقصر وهو أمر منتزع من البيئة الانسانية • وكذلك الجمالة الصفر • وهكذا توظف البيئة والمدرجات للتعبير عن الغيب عبر قناطر التشبيه • وقوله تعالى : (يوم تكون السماء كالمهل • وتكون الجبال كالعهن) المعارج : ٨ ، ٩ •

المهل : ذائب الفضة

العهن : الصوف

س	الكاف
السماء يوم القيامة	= المهل
وهو أمر مجهول	وهو معلوم
الجبال يوم القيامة وهو أمر مجهول	= العهن (وهو أمر معلوم)
س	

وهكذا يبصر المسلم بأحوال القيامة من خلال مدركاته وبيئته • وواضح ان السماء ستكون من الوهي بحيث انها تذوب كذائب الفضة وتكون بغير وزن يذكر كما هو الصوف في خفته وطيانه • وفي هذا ايحاء سابقة الى تفاوت الأوزان في الأبعاد المتفاوتة •

وقوله تعالى : (يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون • خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة • ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) المعارج : ٤٣ ، ٤٤ •

الأجداث : القبور •

سراعا الى المحشر •

نصب : أعلام أو رايا تمنصوبة •

يوفضون : يسرعون •

خروج الموتى من قبورهم الى المحشر سراعا •

س	كأنهم
هو أمر غيبي	= يسرعون الى موضع راية او معلم بارز

يصور لنا رب العالمين حال الموتى يخرجون من الاجداث الى صعيد المنشر وبصورة مفزعة وتلقاء ذاتي وكأنهم يسرعون الى معلم متفق عليه بينهم . انها صورة رهيبة حقا فيهما ما فيها من غنى الايحاءات . ترى ما الذي يدفع الموتى الى أن يندفعوا هذه الاندفاعا الى مكان الحشر ؟ انه أمر الهي يفتح على المسلم بابا من التفكير من خلال قنطرة التشبيه على ما يضارع مثله في البيئة الانسانية .

وقوله تعالى : (واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم ، وان يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة) المنافقون : ٤ .

كأنهم خشب ممالة الى الجدار :

س
المنافقون
في عظم اجسامهم
وقلة نفعهم
= خشب مسندة
كأنهم

تقريب أحوال المنافقين الى الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال انبيئة الانسانية ، وواضح ان الخشب التي تسند الى الجدار هي خشب كبيرة وعظيمة ، ولكن هذا العظم ينتقض من خلال جهنم كما في سياق الآية الكريمة (يحسبون كل صيحة عليهم) .
وقوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) النمل : ٨٨

المشبه حركة الارض وهي مجهولة = مر السحاب وهو معلوم .

وهو ما تستدلون به على حركة الكرة الارضية واذا كانت حركة الارض غير واضحة بالنسبة للانسان من حيث حسه فقد أدخل عليها باب من الحسى فوضحت به .

وقوله تعالى : (وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون) الصافات : ٤٨ ، ٤٩ .

حابسات الاعين على أزواجهن لا ينظرن الى غيرهم .

عين : واسعة العيون .

بيض النعام المستور بريشه لا يصل اليه غبار ولونه البياض في
صفرة وهو أحسن ألوان النساء .

الكاف

س = البيض المستور
أمر غيبي (معلوم محسوس)

• وجه التشبه : اللون الابيض + الصفاء + الحصانة .

• وعبور الغيب من خلال المدرك عبر قنطرة التشبيه .

وقوله تعالى : (انها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعتها كأنه
رؤوس الشياطين) الصافات : ٦٥ .

كأن

س = رؤوس الشياطين
أمر مقجب

وقف البلاغيون والمفسرون بإزاء هذا التشبيه موقفين :

١ - ان الشياطين هنا هي الحيات (٣٩) . أو هي جبال بمكة (٤٠) .

٢ - رؤوس الشياطين غير مشاهدة ، الا انه قد استقر في نفوس الناس
من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد ، كما استقر في نفوسهم
من حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد (٤١) .

ونحن - التزاما مع المنهج الذي نَحْنَاهُ - نرى أن تفسير الشياطين
بالحيات أمر مستبعد لانه يتنافى وصريح الدلالات للالفاظ . ولو كان
المقصود هو الحيات ما الذي كان يحول دون ورودها وقد ورد ذكر الحية ؟
والامر الثاني هو أن طلع شجرة الزقوم أمر غيبي والتشبيه برؤوس
الشياطين هو تشبيه بأمر منتزع من البيئة الانسانية ، اذ العقل البشري
قادر وان لم ير الشياطين ان يشكل لها في مخيلته صورة كأقبح ما
تكون . بل ان عدم تحديد هيئة قبيحة واحدة لهو اغنى في التأثير ، اذ

(٣٩) سر الفصاحة ص ٣٠٠ .

(٤٠) الجمان ص ٢٤٨ .

(٤١) سر الفصاحة ص ٣٠٠ .

يظل كل عقل يخرج من هيئة الى هيئة كل منها مخوفة في القبح ، وهي صورة لا حدود لهما من حيث قوة التأثير ، واعمال الرهبة .

وهكذا كان التشبيه فتح باب من المدرك ولو بالقوة المتوهمة أو المخيلة على الغيبي .

وفي اللسان العربي ما يرفد هذا التفسير ، وهو قول امرئ القيس :

أبقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كآنياب أغوال

وآنياب الأغوال مما لا يدركها الحس لعدم تحققها وانما هي مبنية على قوة التوهم (٤٢) .

يقابل ذلك التشكيل الحسن للملك الكريم في المخيلة كما ورد على السنة النسوة : (فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ، ان هو الا ملك كريم) يوسف : ٣١ .

والملك الكريم لا يرى ولكنه ما استقر في الذهن البشري من حيازته لشطر من الحسن كبير .

وقوله تعالى عن بلقيس : (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو) النمل : ٤٢ فتح باب من المعرفة على الجديد من خلال معرفة الاصيل لان أنس النفوس موقوف على أن تردّها في الشيء تعلمها اياه الى شيء آخر هي بشأته أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم .

وهكذا قوله تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها) البقرة : ٢٥ حتى في الجنة بقي المؤمنون يوظفون مدركاتهم السابقة ومعطياتهم الثقافية في استيعاب المناخ الجديد

والتصوير الجديد • ولا غرو في ذلك فالجنة في نفوس المؤمنين قد مرت من الدنيا (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) محمد : ٦ وهذا التعريف كان من خلال التقريب بما هو معروف في المدركات وفي الحياة الدنيا •

وهكذا نجد ان منهج التشبيه في القرآن الكريم عقد (معاهد نسب وشبكة) (٤٣) بين ما يراد كشفه او ايضاحه وبين أمر واضح ماثل يمكن للناس ان يتحققوه وان يتثبتوا منه كل زمان ومكان وهذا في الاسباب التي تجعل القرآن الكريم ميسرا للذكر لدى سائر الناس سائر الأوقات • ان كل متصل ببيئته مهما كانت في الغنى البيئي او الفقر يستطيع ان يظفر ببعض معاني القرآن الكريم ويظل يتعلق بالايحاءات المتكررة التي لا يشبع منها نظر ولا يحيط بها فكر •

ثم انه قد تبين لنا ان منهج التشبيه في القرآن الكريم لهو كمعادلة الرياضيات سواء بسواء ، وان طرفي المائلة لهما في التساوي الحقيقي ، وهو ما لم تألفه أساليب العرب في القول التي كانت تنحو منحى المبالغة في الصفة او اللون او الحركة حتى لقد اشترط بعضهم (٤٤) ان تكون الصفة في المشبه به أقوى منها في المشبه •

ان هذه الرياضية المطلقة لتجعل التشبيهات في القرآن الكريم أمرا مبرما وقوانين حتمية • بل انها تفوق القوانين الحتمية من حيث وضوح الدلالات البعيدة والمقاصد الخفية وبذا فان الالزام بها أوكد وأوثق ، وهو ما يضيف الى مبدأ الاقتصاد في اللغة واسرار الاعجاز •

التشبيه من حيث هو مفرد ومركب :

التشبيه من حيث وجه الشبه يأتي على ضربين :

أ - مفرد كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « انكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة النقي » يريد الخبزة البيضاء (٤٥) •

(٤٣) الالفاظ للامام عبد القاهر أسرار البلاغة ص ١٣٦ •

(٤٤) يقول ضياء الدين الاثير : فالتشبيه اذاً يجمع صفات ثلاث ، هي : المبالغة ، والبيان

والايجاز المثل السائر ج ٢ ص ١٢٣ •

(٤٥) المثل السائر ج ٢ ص ١٩ •

وقول النابغة الذبياني :

وانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع (٤٦)

وقول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي (٤٧)

يصف عقابا بكثرة الصيد وهنا شبه قلوب الطير رطوبة بالعناب
لاشتراكهما في اللعان والجمرة . وشبه قلوب الطير يابسة بالحشف
البالي للاشتراك في اليبوسة واللون الاحمر الباهت . ان الكلام معقود
على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحدة الا ان أحدهما لا يدخل الآخر
في التشبه . كيف ولا فائدة لان ترى العناب مع الحشف اكثر من كونهما
في مكان واحد ، وكذلك لو فرقت التشبيه فقلت :

« كأن الرطب من القلوب عناب وكأن اليابس حشف بال » كونهما

لم تر أحد الشيئين موقوفا في الفائدة على الآخر (٤٨) .

ومثله قول المتنبي :

بدت قمرا وماست خوط بان وفاحت عنبرا ورننت غزالا (٤٩)

فهنا تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء لا يقيم الترتيب فيها على نسق
مخصوص غير توخي الوزن .

ومثل هذا قولك :

« زيد كالأسد بأسا ، والبحر جودا والسيف مضاء ، والبدر بهاء » لم
يجب عليك ان تحفظ هذه التشبيهات نظاما مخصوصا ، بل لو
بدأت بالبدر وتشبيهه به في الحسن وأخرت تشبيهه بالأسد في الشجاعة

(٤٦) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٤٧) ابن المعتز كتاب البديع ص ٦٩ ، طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٨ نهاية الإيجاز

ص ٧ وكرها عشها ، العناب شجر كحب الزيتون أحمر ، والحشف أردأ الثمر .

(٤٨) انظر اسرار البلاغة ص ١٧٧ .

(٤٩) نفس المصدر ص ١٧٨ .

كان المعنى بحاله (٥٠) ومثل هذا التشبيه نسميه تشبيها مفردا ولو اشتمل على وجوه شبه كثيرة مفردة .

ب - مركب : وذلك كقول بشار بن برد :

كان مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه

عبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغمد وهي تعلو وترسب ، وتجيء وتذهب ، ذلك ان لها في حال احتدام الحرب ، واختلاف الايدي بها في الضرب ، اضطرابا شديدا وحركات مسرعة ، ثم ان لتلك الحركات جهات مختلفة وأحوالا تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة والارتفاع والانخفاض ، وان السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ويقع بعضها في بعض ويصدم بعضها بعضا . ثم ان أشكال السيوف مستطيلة . ثم قوله «تهاوى» لأن الكواكب اذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها في تهاويها توقع وتداخل ثم انها بالتهاوي تستطيل أشكالها (٥١) .

لم يقصد تشبيه الليل بالنقع والكواكب بالسيوف ، بل شبه صورة مثار النقع فوق الرؤوس مع مصاحبة الأسياف في حركاتها بليل تهاوي كواكبه ووضح ان الواو في أسيافنا هي واو المعية وليست لمحض العطف . انه تشبيه صورة خاصة حاصلة من اجتماع العناصر الاولى بصورة ممثلة من اجتماع العناصر الثانية . والليل المتهاوية كواكبه صورة متخيلة أفرزها خيال الشاعر وان كانت عناصرها مستمدة من البيئة والمدرجات . وهكذا نحس ان الصورة هي مركب جديد يختلف عن الليل بمفرده وعن الكواكب بمفردها . انها صورة تداخلت فيها الألوان والحركات واصبح لها هوية جديدة تختلف عن كل مكون بمفرده ، تماما كالمركب الكيميائي فملح الطعام او كلوريد الصوديوم هو ذرة صوديوم مع ذرة كلور ، الصوديوم قابل للاشتعال في درجات الحرارة العادية والكلور غاز وكلاهما سام . ان خصائص ملح الطعام تختلف عن كل مكون بمفرده . وكذلك

(٥٠) أسرار البلاغة ص ٩٦ - ٩٧ .

(٥١) انظر : نفس المصدر ص ١٦١ والجمان ص ٢٢٣ وتلخيص المفتاح ص ٢٢٧ .

الماء H_2O الذي هو عبارة عن اتحاد ذرتين من الهيدروجين مع ذرة من الأكسجين . الهيدروجين غاز وكذلك الأكسجين والاول مشتعل والثاني يساعد على الاشتعال بينا المركب الجديد سائل وهو يطفئ النار في درجات الحرارة غير العالية .

ان صورة الدم واضحة في مجرات النجوم وهو امر لم تحدث به دلالات الالفاظ ولكنه يلمح من صورة المركب .
ومن التشبيه المركب قول أبي طالب الرقي :

وكان أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

شبه النجوم طالعات في السماء مفترقات مؤتلفات في أديمها وقد مازجت
زرقة لونها بياض نورها بدر منشور على بساط أزرق(٥٢) .
ومنه قول الصنوبري :

وكان محمر الشقيق اذا تصوب او تصعد

اعلام ياقوت نثرن على رماح من زبرجد

لأنك في هذا النحو - كما يقول الامام عبد القاهر - تحصل الشبه

بين شيئين تقدر اجتماعهما على وجه مخصوص وبشرط معلوم(٥٣) .
وكقول المجنون :

كان القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح(٥٤)
قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

وواضح أنه يشبه القلب المضطرب القلق بقطاة لها وضع مخصوص
وصورة معينة .

وكقول عنتره :

وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجزم(٥٥)

(٥٢) أسرار البلاغة ص ١٤٦ .

(٥٣) نفس المصدر ص ١٥٤ .

(٥٤) كتاب الصناعتين ص ٤٢ .

(٥٥) سر الفصاحة ص ٢٩٣ . وهزجا مسرعا المكب المقبل على الشيء ، الاجزم : المقطوع .

انه تشبيه تمثيل • انه صورة بصورة •

وقد فرع البلاغيون المسلمون التشبيعه من حيث وجه الشبه فيه الى
أنواع أربعة :

- ١ - تشبيه مفرد بمفرد •
- ٢ - تشبيه مركب بمركب •
- ٣ - تشبيه مفرد بمركب •
- ٤ - تشبيه مركب بمفرد •

أما التشبيهات الثلاثة الاولى فأمثلتها كثيرة خلا التشبيه الرابع الذي
يقول ضياء الدين بن الأثير انه لم يجد عليه شاهدا غير قول أبي تمام
في وصف الربيع :

يا صاحبي تقصيا نظريكما تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر

فشبه النهار المشمس مع الزهر الابيض بضوء القمر (٥٦) •

وسنضرب صفحا عن هذه التعريفات ، ونلتزم طريقا واحدا ينسجم
والخط الرياضي الذي نهجنه •

واذا كانت المعادلة الجبرية تعد بأعلى أس يرفع اليه اي مجهول
فيها ، فاننا سنعد التشبيه مركبا اذا توافر فيه طرف مركب واحد على
الأقل •

تشبيه التمثيل في القرآن الكريم :

قوله تعالى : (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط
به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها
وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا او نهارا فجعلناها
حصيدا كأن لم تغن بالأمس) يونس : ٢٤ •

(٥٦) المثل السائر ج ٢ ص ١٥٢ •

مثل الحياة الدنيا

س = (ماء أنزلناه من السماء ٠٠٠ حصيدا)

نلاحظ ان المشبه به هو عشر جمل اذا فصلت وهي لوحات مختلفة نسق بعضها على بعض بترتيب زماني ومكاني ، ووجه الشبه حاصل من تكاملها ضمن هذا النسق . ان الشبه منتزع من مجموعها من غير ان يمكن فصل بعضها عن بعض وافراد شطر عن شطر ، حتى انك - كما يقول الامام عبد القاهر - لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه (٥٧) . ولو شئنا التعبير الرياضي لقلنا ان س = ما دخل القوس جميعا ويعامل كوحدة واحدة وعلى ذات النسق .

ان مثل الحياة الدنيا هو فلم يتكون من عشر لوحات :

اللوحة الاولى : الماء ينزل من السماء . هل بالامكان ان يؤخذ لقطة تصويرية لمنظر ماء ينزل من السماء ؟ والجواب حتما بالايجاب . واذن يؤخذ منظر هذا شأنه ولنعطه الرقم ١ ويلاحظ ربط انزال الماء بالله تعالى وبالتالي فالمشبه والمشبه به ينتميان الى ذات النظام .

اللوحة الثانية : فاختلط به نبات الأرض . الفاء تفيد النسق والترتيب واذن فهذه اللوحة تنسق على اللوحة الاولى . هل بالامكان تصوير قطرات ماء السماء وقد داخلت نبات الأرض ؟ والجواب حتما بالايجاب . واذن يؤخذ منظر رقم ٢ .

اللوحة الثالثة : أكل الناس : هل بالامكان أخذ لقطة مصورة لانسان يأكل فاكهة : نعم .

اللوحة الرابعة : هل بالامكان أخذ لقطة مصورة لبعير يأكل عشباً : نعم . واذاً تؤخذ مناظر تمثل ذلك .

اللوحة الخامسة : أخذت الأرض زخرفها . هل يمكن أخذ لقطة تصويرية لمنظر بدت فيه الأرض تكتسي خضرة وجمالا في الربيع ؟ نعم يمكن ذلك .

(٥٧) اسرار البلاغة ص ٩٦ - ٩٧ . انظر في تفسيرها بياناً : المثل السائر ج ٢ ص ١٣٩ ، وتلخيص المفتاح ص ٢٤٢ .

اللوحة السادسة : هل يمكن أخذ لقطة مصورة لوجه الارض وقد بدا بالغ
التزيي والحسن ؟ نعم .

اللوحة السابعة : هل يمكن أخذ لقطة مصورة لجني المحصول او لموسم
الحصاد ووفرة الانتاج ؟ نعم يمكن ذلك ، بل أكثر من
ذلك يمكن تخيل لوحة فنية للشعور النفسي الذي
يعكس الجذل والسعادة الضافية والثقة الكبيرة بمستقبل
رخي .

اللوحة الثامنة : هل يمكن تصوير كارثة (كالزلازل او الفيضان) تحل
في الأرض في مكان ما ليلا ؟ نعم .

اللوحة التاسعة : هل يمكن تصوير الكارثة تحل بالأرض في مكان مسا
نهارا ؟* نعم يمكن ذلك .

اللوحة العاشرة : هل يمكن تصوير وجه الأرض بعد الكارثة ؟ نعم يمكن
ذلك .

ان جماع هذه اللوحات والمشاهد هي مثل الحياة الدنيا . وواضح
انه كلما كانت اللوحات أكثر تحريكا للنفس وأكثر اتصالا بالحياة كان
الانطباع العام الذي تتركه أكثر وضوحا وأشد تأثيرا . وواضح ان هذه
اللوحات يستمدنها كل واحد من بيئته بقدر غناها البيئي (من قوله تعالى
كأن لم تغن بالأمس) وبقدر الجمال الذي يتراءى للعينين والنفس . كما
ان هذه اللوحات على تتابعها وفق نسق معين ينسق ثانيه على أوله
وثالثه على ثانيه وهكذا ، الا انها متكثرة في اللون والنكهة والطعم والحركة
والصوت تكثرا لا نهاية له . فكتافة الماء النازل من السماء وصفته يتفاوت
بتفاوت البيئات المختلفة ثم نوعية الارض والنبات والناس والأنعام وكل
هذه الجزيئات لهي في التكثر الذي لا يعرف حدودا .

★ يذكر د. مصطفى محمود في تفسيره أن قوله تعالى ليلا أو نهارا دليل على كروية الارض
اذ ان كل بقعة تكون ليلا بالنسبة الى مكان وتكون نهارا بالنسبة الى آخر في ذات الوقت .
وانظر : احمد محمود سليمان / القرآن والعلم . ط ٢ دار العودة بيروت ١٩٧٤م .

وواضح أن كلما خطا العقل خطوات أفضل في عالم الجماليات ، وفي دنيا التصوير والفنون كان أقدر على التغلغل الى دنيا التمثيل في القرآن الكريم وأكثر استجابة لشفافيات الجمال واللطائف فيه ، وذلك ما يتفق وموافقة الاعجاز البياني لكل زمان ومكان . ان الحجة بالقرآن الكريم لا تكسب مع مرور الزمن الا ازديادا .

ان جمال المركب يفضل المفرد لأن الحس انما يدرك المركب من حيث هو شيء واحد ، فاما تفصيل تلك الأجزاء بعضها عن البعض ، وتمييز ما يكون داخلا في حقيقته عما يكون خارجا ، فذلك انما يتم بالعقل ، لان الحس كما يقول فخر الدين الرازي بما هو أشد اجمالا أقدم من شعوره بما هو أشد تفصيلا ، فانك بالنظر الاول انما يدرك المرئي ادراكا اجماليا ثم ترى التفصيل بعد ذلك ، وهكذا السمع فانك تقف من تفاصيل الصوت بان يعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية على ما لم تقف عليه بالسمع الاول (٥٨) ومن المعلوم - كما يقول فخر الدين الرازي - ان بادراك التفصيل تقع التفاضيل بين راء وراء وسماع وسماع (٥٩) .

وصدورا من مبدأ المركب والاجمالي فان وضوحا في منهج القرآن الكريم سيكشف لنا آفاقا كبيرة وسيجيب عن أسئلة كثيرة وقف عندها بعض البلاغيين والمفسرين .

ومن التشبيه المركب قوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) الجمعة : ٥

الشبه منتزع من احوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ومستودع ثمر العقول ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، فهو مقتضى امور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها الى بعض (٦٠) . وهذا فلم من منظرين : منظر الحمار لوحة رقم (١) ومنظر

(٥٨) نهاية الايجاز ص ٧١ .

(٥٩) نفس المصدر ص ٧٢ .

(٦٠) أسرار البلاغة ص ٩١ نهاية الايجاز ص ٦٧ .

الأسفار لوحة رقم (٢) والصورة مشتقة من نسق المنظر الثاني على الأول وتناولهما معا .

وقوله تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه) النور : ٣٩ .

س = نوحه رقم (١) منظر سراب على قيعه .

أعمال الكافرين = فلما من لوحة رقم (٢) صورة ظمآن ينظر الى شبه الماء بلهفة .

لوحة رقم (٣) صوت ظمآن يمشي ملهوا .

لوحة رقم (٤) صورة تتابع المشي بلا غناء ولا طائل .

لوحة رقم (٥) صورة الظمآن وهو ميت عطشا .

لوحة رقم (٦) تصور منظر الظمآن يلقي حسابه .

وقوله تعالى : (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) النور : ٤٠ .

أيضا

أعمال الكافرين

= فلما ينكون من الآتية :

(١) لوحة لظلمات في بحر عميق

لنقل المحيط الهندي أو

الأطلسي مثلا . وواضح أن

التكثر في العمق والسعة ليهو

في اللامتناهي . وكلما كان

ذلك أقرب من اللامتناهي

كانت الصورة أقرب الى

المقصود .

(٢) فوق البحر العميق موج رقم (١)

لقطة مصورة لهذا الموج مع

• حركة الغشيان بالطبع •

(٣) لقطة مصورة مع التسجيل

• لموج رقم ٢ الذي يعلوه •

(٤) لقطة مصورة لسحاب متصل

• فوق موج رقم ٢ •

أسفل هذه الظلمات جميعا وفي قعرها تماما انسان اي انسان له مواصفات الانسان في السمع والبصر واليدين والرجلين • • لقطة مصورة له • ثم ٦ لقطة مصورة له وهو يخرج يده وهي مغيبة في الظلام من غيره رؤية • ان هذا الفلم بمجموعه هو حال الكافرين • وواضح ان هذا التشبيه دليل على ظلمة نفوس الكافرين وعدم تبينهم لأي من تضاعيف الحق والحكمة في أي من التفاوت أو الأحوال ، بل ان الرين على قلوبهم شامل • وان لاحظ لهؤلاء في الآخرة مهما قدموا من اعمال وتبرعوا بأموال • وواضح ان صورة السراب لهي صحراوية المنظر بينما هذه شاطئية لتكون ذلك في الغنى البيئي للمسلم • وسواء أكان الموج الثاني مستمدا من الحياة او متخيلا فان التخيل هو ايضا من المدركات وما يمكن للعقل البشري ان يتوهمه • واذا ليس ضروريا ان تكون جزئيات الفيلم جميعا صورا واقعة بل لعل بعضها يكون انطباعات نفسية ولحظات ترقب او تحسب وهي اكثر جمالا من الرؤية الواقعة • هذا وقد تبين ان هناك موجا ثانيا ولا يسير عموديا ولكن يسير أفقيا مع طول الموجة • فان يكن فان ذلك في التدبر الذي ينبغي ان يعكف عليه العلماء المسلمون ويستخرجوا أسرارهم البيانية • وقد رويانا ان أحد البحارة الغربيين قد أسلم لما ان اطلع على تفصيلات هذه الآية ، لقرب معاناته مع جو الظلمات في البحار •

وقوله تعالى : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا

ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة
الدنيا الا متاع الغرور (الحديد : ٢٠ .

الحياة الدنيا الكاف

= (لعب ٠٠٠ متاع الغرور)

المشبه به هو فيلم من لوحات ومناظر نسق بعضها على بعض بترتيب
زمني ومكاني .

لوحة رقم (١) هل يمكن أخذ صورة او لقطة او لوحة لحالة من حالات
اللعب ، ولنقل كرة القدم مثلا ؟ نعم .

لوحة رقم (٢) صورة للهو .

لوحة رقم (٣) صورة للزينة والتزيي والتأنق في المأكل والملبس .

لوحة رقم (٤) صورة للتفاخر والتباهي . مجسدة معبرة او نفسية
مستوحاة .

لوحة رقم (٥) صورة للتكاثر في الأموال : منظر غلة شركة وهو ينمو
كل يوم ويزداد .

لوحة رقم (٦) صورة تكاثر في الأولاد .

لوحة رقم (٧) صورة غيث مما يفيد الزراعة وينفع الموسم .

لوحة رقم (٨) صورة لنبات كان غب الغيث وبه تكون

لوحة رقم (٩) صورة للنبات وهو يبس ويذبل .

لوحة رقم (١٠) صورة للنبات في آخر حالات الصفرة والذبول .

لوحة رقم (١١) صورة النبات وقد يبس وتبخر منه الماء وأصبح
مئسما مفتتا .

لوحة رقم (١٢) صورة مستوحاة للآخرة والعذاب الشديد .

لوحة رقم (١٣) صورة لمناخ المغفرة والرضوان .

واضح الترتيب الزمني أيضا في هذا الفيلم المستمد من الحياة او هو
الحياة . وفي وقت كان التشبيه المفرد يعطي لقطة فنية سريعة لموضوع

معين ، فان عامل الزمن وعوامل النمو والتحول تأخذ أبعادها في تشبيه التمثيل . وواضح ان وجه الشبه هو تبيان موقفين من الحياة : موقف من يرى الدنيا لعبا ولهوا وزينة فيتعلق بها ويلهيه الأمل حتى يلاقي وجه ربه وفي الآخرة عذاب شديد . وموقف من يرى الدنيا عرضا زائلا ونعيمًا غير مقيم فيأخذ للمآل أهبطه ويتزود بزاد التقوى . وهذا ينتظره جو الرضوان والمغفرة .

وقوله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) البقرة : ٢٦١ .

مثل الذين ينفقون أموالهم في مثل
سبيل الله = (حبة يشاء)

ويتضح هنا بروز عامل الزمن والتراخي الزمني في المشبه به . وهنا يأتي المشبه به فيلما من لوحات متعددة وبنسق معين والتشبيه هو مجموعها .

لوحة رقم (١) وهي منظر حبة تنبت سبع سنابل . ولما كان زمان الانبات بطيئا فستكون هذه اللوحة غنية بأي لقطة كانت للنبتة وهي في اطوار النمو .

لوحة رقم (٢) صورة مكبرة لجزئية في النبتة وهو عدد الحبات في كل سنبلة .

لوحة رقم (٣) لوحة مستوحاة من مضاعفة ال ٧٠٠ مثل سواء أكان من عمل جهاد أو زكاة أو تكثر نفع . وهذه لا نهاية لتكررها وغناها . وهي مجال استلهاهم واستيحاء . ولنتصور على سبيل التمثيل امرأ استطاع ان يهدي أحد الغافلين الى اعتناق الاسلام . ثم لنسمح للبعد الزمني ان يبرز ولنتتبع من ولد الرجل في الاجيال المتعاقبة وتكثر ذريته . فحتما سنجد ان عدد ٧٠٠ جائز ان يتضاعف في خلال مدة بسيطة ثم هذه المضاعفة تتضاعف أيضا وهلم جرا . وهكذا يجد من قدم في سبيل الله عملا ظنه بأجر قد ظل يتوالد أجورا كثيرة . وهكذا اعمال الناس في سبيل الله ،

منها ما يصل الى سبعة أضعاف ومنها الى مئة ضعف ومنها الى ٧٠٠ ضعف
ومنها الى ٢(٧٠٠) ضعف ومنها الى ٤(٧٠٠) ومنها الى ٨(٧٠٠) وهكذا
على تفاوت النماء والارتفاع اذ كل حبة بدورها من السبعمئة ستدور ذات
الدورة .

والوقوف التي ينفق من ريعها على المصالح الاسلامية صورة أخرى
غنية بالايحاء ولو أردنا ان نمثل الفيلم رياضيا قلنا :

$$٧ = ٧ \times ١$$

$$٧٠٠ = ١٠٠ \times ٧$$

$$٢(٧٠٠)$$

$$٤(٧٠٠)$$

وهلم جرا مع المحافظة على نسق الترتيب .

ان صورة التكثر لأجر ما ينفق في سبيل الله لهي من سعة الغنى ما
يضع المسلم في موقف من لا يستهين بالجهد الصغير يقدر عليه في سبيل
الله . ان النفع بهذا الجهد ليس مما تتبين آثار نتائجه في الحياة القصيرة .
وهذا ما يفسر قوله صلى الله عليه وسلم « من سن في الاسلام سنة حسنة
فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » وقوله صلى الله عليه وسلم :
« اتق النار ولو بشق تمرة » وقوله صلى الله عليه وسلم : « خير المال
عين ساهرة لعين نائمة » يقصد النبع ينفع الله به الناس والأنعام والنبات
ويتضاعف أجر صاحبه وهو في داره نائم .

وقوله تعالى : (فمالهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ،
فرت من قسورة) المدثر : ٥٠ .

كأن

صورتهم وهم معرضون عن

(فيلما معينا) =

الذكر

هذا الفيلم يمثل أكثر من لقطة :

لوحة رقم (١) منظر حمر الوحش نافرة .

لوحة رقم (٢) منظر ارتسام الذعر على تصادمها .

هذه الحمر لفرط خوفها وتعرضها للقسورة سواء أكان الأسد أم
الصيادين .

وواضح ان الفيلم هنا يصور ملامح النفس + الحركة العمياء +
أصوات الذعر . انه الصوت والصورة لدرجة يكاد المرء يسمع مع
التمثيل جلبة هذا النفار والذعر .

وقوله تعالى : (فمثله كمثل الكلب : ان تحمل عليه يلهث او تتركه
يلهث) الاعراف : ١٧٦ .

مثل الذين كذبوا بآيات الله
كمثل = (الكلب في أحوال مختلفة)

انه فيلم من لقطتين :

١ - صورة كلب يحمل عليه (يزجر) .

٢ - صورة كلب لا يحمل عليه ولهاته مستمر .

وهكذا فان تشبيه التمثيل يتيح الفرصة للحركة والتفاوت بينا
التشبيه المفرد لا يعدو ان يكون صورة ساكنة لمنظر واحد ، او صورة ساكنة
لمنظر واحد يشتمل على ألوان متعددة سواء ما كان منها قابلا للتصوير
او قابلا للتصور .

وقوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت
اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)
العنكبوت : ٤١ .

لعل هذه الآية الكريمة تصح ان تكون موضع الالتقاء بين التشبيه
المفرد وتشبيه التمثيل . وانها وان كانت تمثل أمرا واحدا فانها في
تشبيه التمثيل لادخل وذلك لقوله تعالى (اتخذت) . ولو كان المشبه
كبيت العنكبوت لكانت الصورة ساكنة وكان التشبيه مفردا .

واذا لم تكن المصطلحات لتعنيانا اكثر من اعتنائنا بالنص والتعامل
مع كل نص كما لو كان حياة قائمة بنفسها وكما لو كان وحدة واحدة
هي نسيجة وحدها ، الا ان وجود الفعل « اتخذت » يجعلها أدخل في التمثيل .
ان الاتخاذ لا يكون بالايجار حتما وانما تقوم أنشى العنكبوت بتهيئة البيت

وإعدادة والصبر على لأوائه . ولو أتحنا لعدسة الكاميرا ان تسجل كل هذه الخطوات لظفرنا بلوحات متعددة وتعاقب زمني كثير يفسره قوله تعالى « اتخذت » . وهو فرق ما بين الصورة الصامتة الساكنة والصورة المتحركة التي تضارع الحياة في نموها وتعاقب أحوالها .

وبالمقابل نستطيع من خلال هذا التفريق ان نقرر ان التشبيه في مثل قوله تعالى (كأنهم أعجاز نخل خاوية) الحاقة : ٧ وقوله تعالى (كأنهم أعجاز نخل منقعر) القمر : ٢٠ مفرد ذلك ان المشبه به في كل هو صورة ساكنة وان تداخلت اجزائها .

وقوله تعالى : (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون . او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شيء قدير) البقرة : ١٧-٢٠ .

يأتي نسق الآيات القرآنية الكريمة في معرض تبيان معسكري الايمان والكفر .

١ - المتقون الذين يؤمنون بالغيب ويطيعون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون ، والذين يؤمنون بما انزل الى الرسول صلى الله عليه وسلم وما انزل من قبله وبالآخرة هم يوقنون .

٢ - الكافرون : سواء أُنذروا أم لم ينذروا لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم غشاوة .

ثم يأتي تعريف المسلمين بالمنافقين الذين فيهم صفات من هذا المعسكر وصفات من ذلك أو هكذا يخیلون . وقد بين الله صفاتهم : ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا : الآيات .

وحتى يزداد وضوح أمرهم للمسلمين أتى الله تعالى بصورة لهم ممثلة حتى تكون في النفس أوضح .

مثلهم (أي المنافقين) = (فيلما متكاملا) .

ولما كان مثل المنافقين يساوي الصورة المركبة او الفيلم الكامل ، فان الضمائر التي ستنسق في هذا الفيلم ستكون أمرا يتصل بهذا الفيلم وهذا التعريف لا علاقة له بالنفاق الا في الصورة المجملة .

لوحة رقم (١) منظر رجل أي رجل في أي زمان وفي أي مكان يوقد

نارا .

ان هذه لوحة من الحياة يمكن اعادتها في كل زمان ومكان . وليس للوحة هذه معنى في نفسها دون ان تكون عنصرا يدخل في التركيب الجديد ويتخلل عن ملامحه الاولى .

واذن فنحن ضد تفسير هذه الآية تفسيراً مجزئاً ، اذ ليس من منهج التشبيه في القرآن الكريم ان ينظر الى جزئيات الصورة المركبة . واذاً ، وانسجاما مع هذا المنهج نرى انه لا مكان لتأول تفسير النار بالهدى لان النار هنا هي حقيقة وليست مجازية (٦١) . واذ جاز للبعض ان يفسروا النار بالهدى (٦٢) فان البعض الآخر من المفسرين وعلى رأسهم الزمخشري في الكشف ذهب الى ان النار هي نار الفتنة والغواية . واذ لم يكن من سند يشفع لتأول الأولين فليس من سند ايضا يشفع للآخرين . ولا يحل هذا التأول الا ان تكون النار حقيقية كلوحة في فيلم متكامل انا ناظرون نسقه .

لوحة رقم (٢) صورة النار المتقدة وقد أضاءت ما حول المستوقد .

وواضح ان الايقاد يوحى بتغذية النار وتقويتها .

(٦١) انظر تفسير البضاوي .

(٦٢) أنظر تفسير محمد عبده وفي ظلال القرآن .

وحتما سيكون ما حول المستوقد اناس كثيرون يستفيدون من الضوء في الرؤية ويستأنمون به من الحيوانات • والاستيقاد والاضاءة هي تسجيل متحرك فيه الاحوال المتتالية •

لوحة رقم (٣) ذهاب نورهم (والضمير هم) يعود الى من هم حواني الاضاءة والمنتفعين بها • والنار اذا كانت كبيرة فان اضاءتها تصل الى قرى بعيدة وأماكن نائية فكيف من حوالها •

ان الذي يستوقد النار واحد والذين ينتفعون من الرؤية كثيرون • واذن فثمة لا يوجد معنى لعطف ضميرهم على المنافقين لان سياق الحديث هو عن مكونات الفيلم الذي يمكن ان يعاد في كل زمان ومكان وفي عيني كل راء وفي وضوح كل متوسم •

وهنا ايضا المعنى حقيقي ولا مجال لتفسير النور بالايمان في هذا الموضع بالذات - كما قد ذهب الى ذلك كثير من المفسرين (٦٣) •

لوحة رقم (٤) شدة الظلام في عيون الرائيين وهو عدم قدرة شبكية العين على التكيف ما بين تقلص شديد في اضاءة كثيفة واتساع حدقة العين في غياب الضوء الغياب المفاجيء • وهنا يدخل التلوين والتعتيم في اظهار فنية اللوحة •

لوحة رقم (٥) وأضيف الى هؤلاء الحيارى في الظلام الشديد الذي قد عقب الاضاءة الشديدة : انسداد السمع وانحباس اللسان والعنى • وهؤلاء الناس قد بلغوا في التيه والحيرة حدا لا يستطيعون معه الرجوع الى معاشهم وأعمالهم • وهو التفسير ذكره الرازي في مفاتيح الغيب •

ان حال هؤلاء الناس الذين يمكن ان يكونوا في اي زمان ومكان (٦٤) وان يضاف اليهم كل انواع البلايا - اذ ان الله على كل شيء قدير - كما

(٦٣) الجمان في شبيهات القرآن ص ١٣ •

(٦٤) ذكر الامام الطبري في جامع البيان أن هذه الصفات هي صفات المنافقين ونبيه كثير من المفسرين وقد بين الرازي في مفاتيح الغيب ان هذه صفة المستوقدين اذ لا نستطيع ان نقول ان للمنافقين نورا •

جاء عقب التشبيه الثاني في الآية التي تلت - هو الفيلم الذي يشبه مثل المنافقين .

وهكذا يكون تعريف المنافقين الذين يجهل الامام بأحوالهم من قبل المسلمين حتى ان الرسول صلى الله عليه وسلم وقد بلغ في الألعية والفراسة ما بلغ اذ يقول فيه ابن رواحة :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تنبيك عن خبره

يقول عنه رب العالمين (وان يقولوا تسمع لقولهم) بفيلم مستمد من الحياة يمكن ان يتواجد في كل بيئة وفي كل زمان . وان الضمائر جميعا في الآية لهي ضمائر الناس الذين يمكن ان يكونوا مادة الفيلم ولا مكان لتأول الضمائر بانها تعود للمنافقين - كما ذهب الكثيرون - اذ من البدهي ان لا يعرف المنافقون بالمنافقين وانما يعرف المجهول والخفي من خلال المعلوم والجلي . وواضح ان وجه التشبه هو ان المنافقين ينتفعون ببعض المصالح الدنيوية من خلال مشاركتهم في المغانم وهروبهم من المغارم وهو أمر لا سبيل الى تفليته مالم تكن الأمة كلها مستنفرة للجهاد حتى ينكشف كل فرد - ولكن هذه المنافع سرعان ما تعقب كل ألوان البلايا المختلفة . ونرى ان النار هنا للمنفعة وليست للايمان ونباعد ان يكون أن المنافقين قد ادركوا ايماننا يصدق ذلك قوله تعالى (وما هم بمؤمنين) البقرة : ٨ .

ومثل المنافقين يشبه صورة اخرى مستمدة من الحياة ، فان تكن الآية الاولى الأرض الصحراوية هي مسرحها ونقصد البرد مع الليل مع غياب المطر لان المطر يطفىء النار ولأن الاضاءة ممتدة لما حوالها لان الأشجار والجبال تحجب الرؤية فان مسرح الآية الثانية هي المناطق الماطرة .

مثل المنافقين = (فيلما متكاملا من لوحات كثر هي :)

= لوحة رقم (١) منظر مطر يصوب من السماء وذكر السماء هنا له دلالة بيانية يفسرها فنية الصورة . ولسنا نرى ذكر السماء هنا توكيدا

لفظيا لصيب - كما ذكر بعض أئمة التفسير* - وانما نراها ضرورة متصلة بفنية الصورة ، اذ شتان ما هما : منظر مطرب يصوب ولو كان مثل عزالي الماء يهمني ولكن في أفق منكشف ورؤية واضحة وسحاب شفاف ، وهو امر ملاحظ في بعض الجهات حيث الرطوبة نسبتها كبيرة ، ومنظر مطر يصوب وكأنه متصل بالسماء اتصالا لا انكشاف له ولا انقطاع معه وذلك أدعى لتكون السحب متصلة والرؤية متعذرة والظلمة متصلة .

ان ذكر السماء هنا ليس ترادفا لفظيا أو تكرارا زائداً ، بل ان الاقتصاد اللغوي المكثف لهو سمة القرآن الكريم .

ان ذكر قوله تعالى (من السماء) بعد الصيب لهو تكتيف نون الظلمة المتصلة بصورة المطر من أعلاه ولهو الترجمة الفنية لظلال هذه الصورة .
وواضح ان المطر كلما كان أكثر التصاقا بالسماء من سائر آفاقها وكلما كان أوغل في الارتفاع مع مصاحبة الظلام كان ذلك أدعى الى فنية الصورة وأقرب الى المراد .

لوحة رقم (٢) المنظر الاول يخيم عليه جو آخر كثيف شديد السواد كثير طبقات الظلام .

لوحة رقم (٣) المنظر الاول + الظلمات ويتخلله الرعد (الصورة والصوت) .

لوحة رقم (٤) لقطة للمناظر الثلاثة الاولى مندغمة في بعضها ويتخللها البرق .

هذه المناظر كلها هي مسرح الأحداث وهي مناخ التمثيل وتفاوتته بين الرؤية والعنمة والاضاءة والتعتيم وتداخل عناصر كثيرة متفاوتة الكثافة والسرعة والحركة والصوت .

★ بل ذهب بعضهم الى التوكيد على ان المطر هو السماء وليس من بخار ماء البحار والانهار كما ذهبت الحكماء بل ان هذا يرد قول الحكماء . وقد رد على استدلال الفخر الرازي هذا ابو حيان في البحر المحيط اذ بين ان ليس في النص ما يدل على ذلك وبين ان العرب كانت تقول : السحاب بنات البحر . وانظر في ذلك : الكشف ومفاتيح الغيب .

أما لماذا قدم الرعد على البرق في النسق مع ان البرق يلوح قبل الرعد ؟ انه في مثل هذا المقام يتبين استخدام المفسرين لمعطيات عصرهم ، اذ يوردون في تفسير الرعد والبرق تفسيرات شتى كلها معطيات ثقافية جاوزها العصر (٦٥) . وما لم يكن هناك نص قرآني أو حديث للنبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي قد طويت له أبعاد الزمان والمكان - فان المسلم يجاوز المعطيات الثقافية لعصر دون آخر ، حسبما تزداد الصورة وضوحا ويقطع العقل البشري أشواطاً على طريق النضج والتفسير العلمي . ان علينا ان نبدأ من حيث انتهى الناس ونتفرس فيما كشف المسلمون الاولون بصفاء نفوسهم واستعدادهم وان نتجاوز عن تصوراتهم التفسيرية اذا توافر الوضوح الأكثر والتناسق الأكبر . من هنا كان البيان عملية نامية تظل دائمة الحركة والغنى والتطور حتى توظف في خدمة النصوص توظيفا جماليا فتكشف أبعادا ما كانت لتفهم الا على مستويات من النظر والتدبر جديدة . وهو المنهج الذي علم عليه شهاب الدين الخفاجي حين قال : « فننظر في أقوالهم ، ونأمل المأثور عنهم ، ونسلط عليه صافي الذهن ، ونرهدف له ماضي الفكر ، فما وجدناه موافقا للبرهان وسليما على السبر ، اعترفنا بفضيلة سبق فيه ، وأقررنا لهم بحسن النهج لسبيله . وما خالف ذلك وبأينه اجتهدنا في تأويله واقامة المعاذير فيه ، وحملناه على أحسن وجوهه ، وأجمل سبيله ، ايجابا لحقهم الذي لا ينكر ، واذعانا لفضلهم الذي لا يجحد » (٦٦) .

ان الرعد والبرق يحدثان في وقت واحد (تقريبا) نتيجة احتكاك سحابتين احدهما سالبة الشحنة وأخرى موجبة . والماء في أحواله المتعددة وبخاصة بعد التبخر يكون كثير التآين وعند الاحتكاك يحدث تفريغ كهربائي يحدث صوتا وشرارة كبيرة قد تمتد . ولأن سرعة الصوت هي دون سرعة الضوء (٣١٤م/ث) والضوء ١٨٦٠٠٠ ميل (٣٠٠ ألف كم/ث) فان البرق يتراءى للناظر قبل الرعد . ثم ان الرعد وخاصة الرعد المتكرر من خلال عمليات الصدى لهو أدخل في جو التخويف كأن ظلام العين

(٦٥) أحكام القرطبي وتفسير الخازن وتفسير الطباطبائي والجلالين .

(٦٦) سر الفصاحة ص ١٦٨ .

يلتقي وظلام الرهبة والوحشة . زد على ذلك ان الرعد خوف كله بخلاف البرق الذي يكون خوفا ويكون طمعا ايضا قال تعالى : (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) الرعد : ١٢ . وعندما يحدث التفريغ الكهربائي ويحرق أناسي أو دورا أو أشجارا ويكون مصحوبا بالرعد القوي يحدث من انفزع في النفوس ما يجعل أصابع القوم في آذانهم تقلل من خلخلات الطبقات الهوائية . واذا كانت الأنامل وحدها هي التي تدخل الآذان ، الا ان المجاز المرسل هنا كان ابلغ من الحقيقة بسبب حرص القوم على ان يحموا طبلات آذانهم بكل ما يستطيعون من جهد وسد فراغ ، وهو أقرب لأن تكون الأصابع لا الأنامل هي التي تجتهد لتحول دون ذلك . وقوله تعالى حذر الموت قرينة الى أن الصواعق تحرق وتقتل وهذا ناتج عن التفريغ الكهربائي . ان تفسير الصواعق بانه شدة صوت الرعد - كما ذهب اليه بعض المفسرين (٦٧) - لا ينسجم ونسق الآيات القرآنية ، ودلالات الألفاظ . ان شدة الصوت قد تصم الآذان ، وتسد السمع ، وتصدع الجدران ، لكنها لا تميمت الناس . ان هذه قرائن علمية ما كان أبنائها للعالم المتدبر حتى في تفسيره للظواهر العلمية يكون على بصيرة وهدى . ان ترتيب الرعد قبل البرق لم يكن عطفا عشوائيا وانما هو كلام يترجم عن الحق ، ولا ينطق عن الهوى .

وقوله « حذر الموت » ما كان أدله على ذات الحقيقة وأبعده عن التفسير المغاير . وواضح ان البعد الزمني والنضج العلمي هو الذي أتاح لنا هذا الوضوح في الرؤية وهكذا يظل البيان يوظف في خدمة القرآن الكريم سائر معطيات الحضارة واسرار اللغة وخير للمفسرين الأسلاف ان لو كانوا يحجمون عن بعض النقاط التي لا يرون دليلا ساطعا على ثبوتها ، اذاً لكانت هذه النقاط كلوحة العناصر الكيميائية تظل تحفز العلماء الى استهداء جديد ، ونظريات أكثر شمولا ، وأوضح تفسيراً . ان الفاظ القرآن الكريم لهي لبنات محكمة ، في بناء محكم ، في هندسة محكمة ، فان لم يتبين لنا سر فيها ، فخير لنا ان ننبه الى ذلك ، وان

(٦٧) تفسير الجلالين . ومن الرائع ان نجد سبقا عند النسفي مثلا حيث قال انها قصفة رعد تنقض معها شعلة من نار .

يكون هذا في التحديات التي تدفعنا الى استشراف أفق جديد وتصور مناخات وقرائن مغايرة . ان آيات الرعد والبرق والصواعق والمشرقين والمغربين كان يمر بها بعض المفسرين مرورا لا يروي غلة ، ولا يشفي صدرا ، ولا يحمل على اقناع . بل ان النظريات العلمية التي كانت تصدر اعمال باحثين مسلمين من علماء وفلكيين وجغرافيين ورحالة لم تكن لتنال حظها الاوفى من حيث التبين والوضوح في التفسير الكاشف والسياق المنسجم .

واذا كان المشبه به مركبا وكانت الصورة تؤخذ بمجملها فمن الخطر أيضا ان تؤخذ جزئيات المركب لتكون ماهيات مستقلة .

ان الذين ذهبوا الى تفسير الظلمات بالكفر والرعد بالوعيد ، والبرق بالبينات (٦٨) قد وقعوا في ربكة لم يستطيعوا ان يخرجوا منها . كيف يمكن ان يكون البرق بينات ، والبرق فيه الموت ؟ ثم ان هؤلاء لم يبينوا لنا كيف يكون رجوع الحديث عن الكافرين في قوله تعالى (والله محيط بالكافرين) في وقت كان تبيان معسكر الكفر قد مضى تفصيله ، بينا النسق هنا هو في المنافقين (٦٩) . الحق أقول لقد حاولت تفسير القرآن الكريم في مطلع شبابي ، وكانت هذه الآية هي التي ربطت الريشة فام تجاوزها حراكا .

ان منهج تشبيه التمثيل في القرآن الكريم يفسر كل هذا تفسيراً يستشعر حلاوته من واقعه . واذا كان المشبه به فيلما متكاملا وكانت الصورة المركبة المتميزة الهوية والمتفردة الشخصية يتعامل معها كوحدة تامة ، فان المطر والظلمات والرعد والبرق لهي الفاظ تحمل محمول الحقيقة ولا موضع للمجاز فيها . بل كيف لا تكون حقيقية ، او مستمدة من الحقيقة ، اذا كان ينبغي ان تكون في قوة التجربة العلمية حاضرة

(٦٨) انظر : تفسير الطبري والنسفي والخازن وجوهري طنطاوي وتفسير الجلالين ومحمد عبده وسيد قطب .

(٦٩) انظر مفاتيح الغيب والبيضاوي والمنار .

في كل زمان ومكان لتبقى الحجة بها قائمة ؟ ! ان هذا يوفر علينا التعلق بالجزئيات التي لا تكون وضوحا .

وفي الحديث عن الفيلم الذي يشتمل على لوحات المطر المتصل بالسماء الذي يتخلله ظلمات ورعد وبرق وصواعق وصور من يجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت يأتي التعليق على منظر موقف من مواقفهم - والله محيط بالكافرين . ان هؤلاء الذين يتعرضون لكل هذه الأحوال ليسوا المنافقين بالضرورة كما انهم ليسوا بالكافرين ضرورة . انهم بشر ممن يخلق الله ، يعيشون في كل زمان ومكان . انها صورة ممثلة مستمدة من الحياة او هي الحياة . وهذا النموذج الذي عبره التشبيه عينة كالعينات الاحصائية تماما فيها كل ملامح الفطرة علاوة على ملامح التواجد في الأمكنة والازمنة ، كي تبقى الحجة بهم قائمة يمكن التحقق منها والتثبت والاعادة . في مثل هذا الموقف من الترقب والتحسب يأتي تعليقه تعالى (والله محيط بالكافرين) . أما المؤمنون الذين في قلوبهم بعض خشية من الله - على أي ملة كانوا وأي دين اتبعوا - فهم في مثل هذه الأحوال مشفقون من الخوف لانهم يخشون ان يكون هذا غضبا الهيا .

حتى ان الكافرين الذين يأمنون مكر الله (٧٠) لانهم ينسبون هذه الترتيبات الى عشوائية الطبيعة - ليشعرون في مثل هذه الرهبة ان قد احيط بهم وانهم لا يفلتوا . فكيف ثمة يكون موقف هؤلاء الناس الذين لا يأمنون مكر الله والذين يضرب بهم مثل التشبيه مع الترقب والخوف ؟ انه لا شك كبير كبير .

وهكذا فان ذكر الكافرين هنا جاء في جملة اعتراضية لا محل لها من الاعراب لانها تعليق خارجي على نسق الفيلم وتحرك لوحاته ومناظره . وقد تنبه الى ذلك الامام البيضاوي في تفسيره فذهب الى تقرير هذا الرأي .

(٧٠) قال تعالى : (فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) الاعراف : ٩٩ . وهنا يتضح قيمة تفسير القرآن بالقرآن وهو امر قد سبق اليه الاسلاف ووضح في تفسير الامام الطبري وهو المنهج الذي ينادي به في المحدثين الدكتور عائشة عبد الرحمن في التفسير البياني للقرآن الكريم وأمين الخولي في فن القول .

ويستمر الفيلم في الحركة : ان اجواء المطر والظلمات والرعد والبرق والصواعق والرغبة الضافية وتحسب الموت تضع الناس في موقف من يريد خلاصا ويطلبه بأي ثمن . فاذا أضاء لهم البرق - وهو ليس ضوء برق عادي - انه ضوء شديد اللمعان يكاد يخطف الأبصار - وهنا لا ينبغي التعلق بان يكون البرق مما يرى في البيئة اذ ان قوة هذه الظواهر ودرجاتها نسبية كما هي قوة الابصار والسمع وتحمل الذبذبات والضغط ودرجات الحرارة - مشوا فيه الى حيث المغاور او الكهوف او جذوع الأشجار واذا أظلم عليهم وقفوا وقفة الترقب والحيرة . وان اراد الله تعالى ان يتم صور التنكيل والسخط بهؤلاء أذهب سمعهم وأبصارهم فكانوا في مسلسل لا يحسدون عليه ، فهو قدير على كل شيء .

واذن يكون مثل المنافقين في اضطراب نفوسهم وفي ترقبهم وتحسبهم من غضب الله أشد هولا حتى من الكافرين الذين يستوي لديهم الوعد والوعيد - وهذا هو ما يحكيه الفيلم الذي يكون المشبه به .

وقوله تعالى : (الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم) سورة النور : ٣٥ .

يقرب الله تعالى الحقائق والماهيات من خلال التشبيهات وضرب الأمثال . ان المثل على المثل يكون الدليل ويكون ذلك باقامة قناطر شبه على كليهما ويكون حشرهما على صعيد واحد ينال فيه الخفي جلاء والغامض وضوحا . وان هذا ليتيح للمقارنة بين امرين من طبيعة واحدة ونوع واحد . ان مثل الحياة الدنيا هو كمثل الماء الذي يؤول الى حصيد . وكأن العبرة في الحالين هي موضع التشابه اما تبين ماهية الحياة من حيث هي خلايا وأنسجة وبلازما وفسيولوجيا وروح فليس مسلسل الماء هو الدليل عليها . واذن تكون الأمثال مستويات تفسر ركنا معلوما وجهة

معينة وتزيد المؤمن تعريفا دون ادراك لحد الامر على سبيل العلم والاحاطة
لان العقل قاصر ولأن بعدي الزمان والمكان يحتويانه ولا يحتويهما •

ان الله نور السموات والأرض الكاف
ومثل هذا النور = فيلما معينا هذه لوحاته :

لوحه رقم (١) المشكاة وهي الأنبوبة في القنديل •

لوحه رقم (٢) المشكاة فيها مصباح وهو الفتيل المتقد •

لوحه رقم (٣) الفتيل في زجاجة شفافة تشبه الكوكب الدري نسبة
الى اللؤلؤ في صفائه ولمعانه •

وهنا نلاحظ ان قوله تعالى (الزجاجة كأنها كوكب دري) زيادة شرح
وتفصيل في سياق عام فهي جملة اعتراضية لا محل لها من الاعراب •

لوحه رقم (٤) المصباح وقد اتقد بزيت من شجرة زيتون مباركة
لا شرقية ولا غربية •

لوحه رقم (٥) صورة زيت يكاد يشتعل في درجات الحرارة العادية •

وهنا نتبين ان ليس بالضرورة ان تكون القوة الزيتية او الصفات
الزيتية كما هي زيت الدنيا ، اذ ان الله تعالى قادر على أن يعيد تشكيل
الماهيات والصفات وخصائصها الفيزيائية والكيميائية •

وهذه ايماءة بيانية الى أن شجرة الزيتون التي ضرب زيتها مثلا
ليس ضرورة ان تكون من شجر الدنيا ، بل ان قوله لا شرقية ولا غربية
ليؤكد ان هذا غير شجر الدنيا في صفاته وقوة اشتعاله • واذا أخذنا
بالتفسير العلمي لكروية الارض وأن كل بقعة هي مشرق ومغرب في الوقت
ذاته ، وهو تفسير قوله تعالى : (رب المشرقين ورب المغربين) الرحمن : ١٧
لنجد أن ذات التفسير ينسجم أيضا ، اذ ان قوله تعالى : (لا شرقية ولا
غربية) ينبغي أن يكون بقعة على الأرض تكون في ذات الوقت شرقا وغربا ،
بمعنى ان لو كانت الشجرة على الأرض لصح ان تكون شرقية وغربية في
الوقت ذاته ، وهو ردد لتفسير كروية الأرض •

ان التشبيه الممثل ، وان استمد عناصره من الحياة ، الا انه ليس ضروريا ان يكون حياة . وقد وجدنا ان الليل الذي تتهاوى كواكبه صورة متخيلة وان كانت عناصرها من الحياة . وانسجاما مع هذا التصور فاننا نرى رأي معمر والحسن بان هذه الشجرة من شجرة الجنة ، ولا عبرة في توهين الرازي في مفاتيح الغيب لذلك بقوله : وهذا ضعيف لانه تعالى انما ضرب المثل بما شاهده . ونحن نقول : ان هذه صورة متخيلة يستطيع الانسان ان يتخيلها من خلال شبه عناصرها في المدركات البيئية . وهذا في الواقع يغنينا عن كثير من تأولات كثير من أسلافنا المفسرين والبلاغيين ممن ذهبوا في مثل نور الله تعالى كل مذهب فقالوا هو مثل نعته في قلب المؤمن . وقالوا بنور الاسلام وقالوا هي قلب النبي صلى الله عليه وسلم وما ألقى فيه من النور (٧١) . وان الشجرة المباركة هي ذات النبي صلى الله عليه وسلم لانه من أرض الحجاز التي لا تميل الى الشرق ولا الى الغرب (٧٢) وانها أرض الشام (٧٣) لأنها معتدلة المناخ .

ان الزيتون المباركة ليست بالضرورة أن تكون من شجر الدنيا ، بل انها ليست منها لأنها تغايرها في الخصائص والصفات ، وهي أن تكون من شجر الجنة كما روي عن عكرمة والحسن أولى (٧٤) وذلك أكثر انسجاما ومنهج التشبيه في القرآن الكريم . وقال الحسن : هذا مثل وليست من شجر الدنيا اذ لو كانت في الدنيا لكانت شرقية او غربية (٧٥) .

(٧١) تفسير الطبري ، والجمان ص ١٤٠ وانظر طائفة من هذه الاقوال في تفسير الرازي وتجد تفسيراً فلسفياً كما أثر عن أبي علي بن سينا وتفسيراً صوفياً عن أبي حامد الغزالي بل وتفسيراً رمزياً كما أثر عن كعب الاحبار . وانظر الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري .

(٧٢) المثل السائر ج ٢ ص ١٢٧ .

(٧٣) الكشف والبحر المحيط والنسفي والبيضاوي والجواهر .

(٧٤) البحر المحيط وانظر الجمال ص ١٤٩ .

(٧٥) نفس المصدر وتفسير الطبري وتفسير القرطبي وتفسير الطبرسي وروح المعاني للآلوسي .

لوحة رقم ٦ : منظر النور الحاصل من اجتماع هذه الهيئات جميعا .

لوحة رقم ٧ : منظر النور وقد ضوعفت قوته وشدة اضاءته .

واذا كان هذا ممكنا فنيا من حيث فن التصوير الحديث والتحكم فيه وهو اشارة الى تطور فنون الاضاءة سابقة - فان الله تعالى قادر على ان يكثر صفاء واضاءته الى ما لا نهاية من حيث القوة وشدة الاضاءة . ثم ان الربط بين آيتي النور والمساجد كان في الايحاءات التي يستحب معها التنوير وقت الصلاة .

هكذا يضعنا مسلسل التمثيل من خلال المدركات الدينية وعناصرها على عتبات الحياة العلوية ، وبذا تبين هذه الحياة حلقات يعرف أولها ولا نهاية لها في النسب والابعاد والتكسر . ان مدركاتنا لهي العتبات الاولى للتذوق والعبور والنفاذ وهذا يستدعي أن نعيش الحياة الدنيا علما وجديدا وتفكرا في خلق السموات والارض عبادة . وان ضرب الامثال وتنوعها في الغنى ليضع مدركاتنا في الضعف الذي يسلم بالعجز عن الاحاطة وفي ذات الوقت في الثقة التي تدفعها للاستشراق والفضول . وهكذا يمسح رب العالمين عن ملكاتنا وادواتنا ومدركاتنا للتذوق كي نبقي في اللهفة والرجاء والتشوق الى لقاء ربنا وكشف الغطاء فنعلم الامور علم كليات ويقين لا علم علة ومعلول .

وقوله تعالى : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها قرار) سورة ابراهيم (٢٤ ، ٢٥) .

وهنا تشبيه تمثيل اذ لا يتم التشبيه الا من خلال قراءة الآية جميعا .

الكاف

مثل الكلمة الطيبة = فيلما .

هذا الفيلم يتكون من لوحات هي :

١ - شجرة طيبة الثمر .

- ٢ - منظر الشجرة مع تركيز عليها وهي متأودة الجنور .
- ٣ - منظر الشجرة مع تركيز على الفروع الممتدة في السماء .
- ٤ - مناظر متعددة للشجرة في فصول من السنة مختلفة .

وقوله تعالى بإذن ربها إشارة الى ان التشبيه تشبيه تمثيل وان المشبه به وان كان فيلما تكونه عناصر الحياة ومدركاتها الا انه ليس بالضرورة أن يكون الحياة . واذن فالشجرة التي هذه خصائصها هي شجرة ممثلة استمدت عناصرها من المدركات وان الله تعالى قادر على أن تكون هذه الخصائص حين يشاء . وهذا التفسير البياني يعفينا من التأول البعيد للظفر بالشجرة في الدنيا . وما قيل في شجرة النخيل (٧٦) ومع التقائها مع هذه الشجرة الطيبة في صفات وخصائص كثيرة الا اننا سنظل نجزم موقنين أن ليست هي شجرة النخيل . اذ ثبات الاصل أمر لا يعرفه شجر الدنيا ولا حتى شجر النخيل . والاكل الدائم شيء لا يعرفه شجر الدنيا ولا حتى شجر النخيل ، حتى الليمون الدائم الاثمار ينور شهرا ويثمر آخر .

وأما أن تفسير التمر يؤكل شتاء فهو في التأول البعيد اذ دلالة الالفاظ واضحة وهي ان الشجرة هي التي تؤتي أكلها كل وقت وهو واضح وهو ما شدد عليه الفخر الرازي .

وهكذا فاننا سوف نعتم على شفافية الآيات وجمالياتها ان حاولنا أن نتعلق بما يقابل بعض ذلك في الدنيا . وقد رويناه عن ابن عباس رضي الله عنه ان هذه الشجرة ليست من شجرة الدنيا (٧٧) وهو امر يتسق مع المنهج الذي قد ترسمناه .

(٧٦) من ذلك : الكشف وتفسير البغوي وتفسير النسفي وتفسير البيضاوي ، وتفسير القرطبي وتفسير ابن كثير وتفسير طنطاوي جوهرى وانظر الجمان في تشبيهات القرآن ص ١٠٠ .

(٧٧) ذكره ابن كثير في تفسيره وانظر الجمان ص ١٠٦ .

أما ما يكونه وجه الشبه بين مثل الكلمة الطيبة وهذه الشجرة المباركة فلعله في الموقف الثابت الواضح الذي لا يتزحزح في الدنيا ولا ينال عدو منه زحزحة . ان المسلم الصادق في القول لهو في الثبات الذي لا يقلع . وقد جربت الشيوعية والتنصيرية تحويل مسلمين صادقين عن دينهم فما نجحوا في واحد .

ان الذين هم في غطاء عن ذكر ربهم أن لهم أن يتبصروا احياءات هذه اللطائف المباركة . واذا كان هذا حال المسلم من حيث ثباته في موقعه فان التأييد الالهي لهو أكثر امتدادا واشد تثبيتا في الدنيا وفي الآخرة ناهيك عن الكلم الطيب يرفعه رب العالمين وتفتح له أبواب الارض والسماء .

ومثل الكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض كأن لم تكن . وواضح ان الشجرة هي للتمثيل وليس ضرورة ان تكون الحنظل أو الكراث أو الثوم كما ذكر ذلك الفخر الرازي . ثم ان الحنظل نبات وليس شجرا . وهذا الدليل على ان كيد الكافرين ضعيف وهو يبور .

وقوله تعالى : (ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) الفتح ٢٩ .

مثل محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته من المؤمنين .

ك = (صورة نامية يداخلها عامل التدرج والبعد الزمني) وهو لذلك تشبيه تمثيل .

لوحة رقم ١ زرع أخرج وريقاته .

لوحة رقم ٢ صورة للزرع وقد قوي .

لوحة رقم ٣ صورة للزرع وقد امتد مع تركيز على العرض .

لوحة رقم ٤ صورة للزرع وقد امتد مع تركيز على الطول والنمو الطولي .

لوحة رقم ٥ صورة هذا الزرع وقد قرت به عينا صاحبه سواء أكانت الصورة بيئية أم نفسية .

انها صورة منتزعة من البيئة الانسانية ، قائمة في كل زمان ومكان .
وان الذي يستطيع أن يتابع نمو البذرة الأولى من مراحل الضعف ويرى
رسوخ هذه النبتة وقد تأودت منها الجذور وامتدت منها الساق والاوراق
وضربت في العرض والغلظ - ليستطيع أن يدرك أن صحابة هذا النبي صلى
الله عليه وسلم وأن بدأوا بضعة نفر الا أن دولتهم ستمتد عرضا لتفتح بلادا
كثيرة وتحوز مساحات شاسعة ، وستمتد طولا من حيث الاستمرار الزمني
والامتداد التاريخي ، وقد كان .

ان الذين يتفكرون في هذه التشبيهات يمكنهم أن يحصلوا منها على
ايماءات كثيرة وايحاءات ما كان أغناها . وهكذا يستطيع المؤمن المقبل على
ربه أن يبصر في آي القرآن الكريم ما لا يبصره أبناء بيئته وزمانه وذلك لأن
غنى الايحاءات لا يكاد يتعلق بنهايتها خيال أو يحيط به فكر .

واذا لم يكن من نص على ان هذه النبتة ستحور ، فان هذه لتحليم
بشارة على ان الاسلام ودولة الصحابة هما لا شك راجعان ، وأن الزبد
الطافي على سطح الاحداث اليوم ينبغي أن لا يكون اكثر من طفاوة وشكان
ما تتبدد ويعود الزرع قويا ملتفا .

هذه من قناطر التشبيه ومعادلاته في كتاب الله العزيز أتينا بها
على سبيل التمثيل لا الحصر ، وكان لنا عند كل منها وقفة مستأنية . واذا
كان من فضل في هذا المنحى في الدراسة ، فهو التعامل مع النصوص كما
لو كانت حيوات مستقلة ضمن النسق العام ، وفي اطار المنهاج العام . واذا
كنا قد شعرنا بأننا ظفرنا الظفر الجمالي الذي يعرفه أهله ، فان هذا
يغرينا بمزيد من الدراسة والتأمل والتدبر ، ومن قرع الباب فانه يوشك
أن يفتح له . نسأله تعالى أن يكون هذا في الايمان الذي حبه الينا وزينه في
قلوبنا .

من الأمثلة السابقة وجدنا أن المعنى اذ أتى ممثلا فهو في الاكثر ينجلي
بعد ان يحوج القارئ او السامع الى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة

في طلبه . وما كان منه الطف ، كان امتناعه أكثر ، وابطؤه أظهر ، واحتجابه أشد . ومن المركوز في الطبع – كما يقول الامام عبد القاهر – ان الشيء اذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق اليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وبالمزية أولى ، فكان موقعه من النفس أجمل وألطف ، وكانت به أضمن وأشغف (٧٨) ، ويقول الامام عبد القاهر عن فوائد التمثيل : واذا نقلتها (النفس) في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب الى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع وعلى حد الضرورة فانت كمن يتوسل اليها للغريب بالحميم ، وللجديد بالصحة بالحبيب القديم ، فانت اذن مع الشاعر وغير الشاعر اذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ثم يكشف عن الحجاب ويقول : ها هو ذا فأبصره تجده على ما وصفت (٧٩) .

وفي بيان تأثير التمثيل بعد ذكر الخبر – كما قد رأينا في الاخبار عن المنافقين وأعمالهم ثم رقد ذلك بالتمثيل في شبهين هما : المستوقد والصيب – يقول الامام عبد القاهر : فانا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر ، كما اخبر الله تعالى عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله (قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي) والشواهد في ذلك كثيرة والامر فيه ظاهر (٨٠) . ان المعنى وان كان معلوما يقينيا – كما يقول فخر الدين الرازي – الا ان التمثيل بالمحسوس يفيد زيادة قوة ، اذ ان الف النفس مع الحسيات أتم من الفها مع العقليات ، فاذا ذكرت المعنى العقلي الجلي ثم عقبته بالتمثيل الحسي فكأنك قد نقلت النفس من المعنى الغريب الى القريب كقوله :

وليل كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاق المظاهر

فان ظل الرمح على حال متناه ، على ان التشبيه بالمشاهد المحسوس يزيد يقينا (٨١) ومثله ما قد وقفنا عنده من قوله تعالى : (كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه) .

(٧٨) أسرار البلاغة ص ١٢٦ .

(٧٩) نفس المصدر ص ١٠٩ .

(٨٠) أسرار البلاغة ص ١١٢ .

(٨١) انظر : نهاية الايجاز ص ٧٥ وسبقه أسرار البلاغة ص ١١٤ .

وعلى ذلك فاطردت أمثلة تشبيه التمثيل في القرآن الكريم ، فعلاوة على العلم الإيقيني كانت وجوه التمثيل في المعاني المختلفة ، بل وفي البيئات المتفاوتة ، تزيد النفس تعلقا ، وبه تشبثا . وقد بينا ان لكل نفس مع البيئة الخاصة تصورا ونكهة ومذاقا ، وسيكون لهذه الخصوصيات مع العلم مواقف ذاتية لا سبيل الى نسيانها أو التغفل منها (٨٢) .

التشبيه الضمني :

قال أبو تمام :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي (٨٣)

تعتقد في هذا البيت مشابهة ضمنية بين عطل الكريم من الغنى وعطل المكان العالي من السيل . أما المشبه فهو دعوى غير قائمة في واقع العقل وانما هي موقف .

وأما المشبه به فهو قضية مسلم بها ، وهي أمر واقع يستطيع كل واحد في كل زمان ومكان ان يتأكد منه . وهنا يقيم الشاعر علاقات تخيلية بين الكريم والمكان العالي ، وبين الغنى والسيل . وهذه العلاقات غير موجودة في واقع العقل ، وانما أقامها الشاعر من خلال رؤيته الكاشفة للعلاقات بين الاشياء ، ومن خلال لمحة لأوجه شبه لا يراها العادي من الناس . ولو سلمنا جدلا ان القضية الاولى كانت من حيث البرهان صفرا وأن القضية الثانية كانت من حيث البرهان مئة بالمئة فواضح ان حشر القضيتين على صعيد واحد سيتيح للقضية الاولى أن تكون خمسين بالمئة وهو مكسب كبير على أي حال . وإذا أخذنا بعين الاعتبار ان قلائل من الناس من يدققون في هذه

(٨٢) فباسط الكفين الى الماء سيتخيل في بيئة النيل من خلال النيل وفي بيئة الفرات من خلال الفرات وفي بيئة البحيرات العذبة من خلال البحيرات العذبة وفي بيئة جمع الاطوار من الآبار . ثم ان لكل بيت طريقته في السقيا فمن كان ألف لساقية صغيرة فان التمثيل سيكون من خلال الساقية . وهكذا الكلب والخمار والعنكبوت مما مثل به من البيئة .

(٨٣) أسرار البلاغة ص ٢٤٥ والمثل السائر ج ١ ص ٢٤ . انظر كتابنا : أبو القاسم الأمدي وكتاب الموازنة ص ٩٤ .

الأمور ويزنونها بميزان العقل ، وإن الإنسان هو عقل ووجدان معا علمنا أن بعض إichات هذه المعاني سيبقى لائطا بالنفس . أضف إلى ذلك أن القضية الأولى لا تولي نفسها للتجربة والكشف لأنها حالة نفسية وموقف ، فاذن تبقى هذه الروابط التخيلية تلح على القارئ أو السامع ما اتصل بهذه المعاني أو وصل إليها .

من هنا تبدو مضارعة الشاعر للفيلسوف أو الصوفي من حيث الرؤية للعلاقات بين الأشياء ومن حيث استلهاهم تصور عام . فإذا ما كان الشاعر حزينا مثلا فانه سيحيل الوجود كله حزنا وبكاء من خلال نصوص تتماسك وعلاقات تخيلية أوجه الشبه فيها واضحة لا سبيل إلى ردها ودفعها .

وإذا ما كان الشاعر جذلا فان الحياة ستبدو من خلال المعادلات الجديدة سعادة تامة ، وجذلا ، وسرورا .

وليسمت الحياة أيا من هذين الموقفين ولكنها المزيج من التفاؤل والألم . من هنا كان خطر الانتقائية على الوجود ، وخطر اتخاذ موقف معين من خلال العاطفة وحدها . وهو ما نص عليه القرآن الكريم (والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وإنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا) الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٧ .

انهم يهيمون مع أودية العاطفة والهوى ويتخذون من الحياة موقفا مزاجيا بينا المؤمنون تظل الحياة في أعينهم كما ينبغي أن تكون من غير هوى ولا مزاج .

ولذلك أخرج أفلاطون الشعراء من جمهوريته المثالية لانهم من خلال انتقائه المعاني التخيلية يفسدون ما يبينه الفلاسفة والحكماء من أبنية عقلية ومعان عقلية ، ويظلون بمنأى عن دائرة المناقشة والحجاج والتكذيب .

والمتنبى في قوله :

فإن المسك بعض دم الغزال

فإن تفق الأنام وأنست منهم

قد احتج لدعواه ، وبرأ نفسه من ضعة الكذب وباعدها عن سفه المقدم
على غير بصيرة ، والمتوسع في الدعوى من غير بينة (٨٤) .

ومثله قول مثقال الواسطي (٨٥) :

ثم حاولت بالمشيقيل تصغي — — — — —
كالذي طاطأ الشهاب ليخفى — — — — — وهو أدنى له الى التضريم
نجد الشاعر لقف الكرة واعادها على غريمه عبر أوجه شبعه أحالت
المعنى الى ضده عبر مشبه به لا سبيل الى نقضه . وفي هذا يقول الامام
عبد القاهر : ولم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للمثل ، ولم تنصادف هذه
الاشياء المتعادية على حكم المشبه ، الا لأنه لم يراع ما يحضر العين ، ولكن ما
يستحضر العقل ، ولم يعن بما تنال الرؤية ، بل بما تعلق الرؤية ، ولم
ينظر الى الاشياء من حيث توعى فتحويها الأمكنة ، بل من حيث تعيها القلوب
الفطنة (٨٦) .

وفي بيان فضل المعاني التخيلية وامتداد التفاوت فيها ، وافتراقها عن
المعاني العقلية يقول الامام عبد القاهر : ان الاشياء المشتركة في الجنس
المتفقه في النوع تستغنى بشبوت الشبه بينها وقيام الاتفاق فيها عن تعمل
وتأمل في ايجاب ذلك لها وتثبيته فيها ، وانما الصنعة والحدق ، والنظر الذي
يلطف ويدق في أن تجمع أعناق المتنافرات والمتباينات في ربة ، وتعقد بين
الأجنيبات معاقد نسب وشبكة . . . ولا يقتضيان ذلك الا من جهة ايجاد
الائتلاف في المختلفات (٨٧) ويضيف الامام عبد القاهر قوله : ولم أرد بقولي
أن الحدق في ايجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس أنك تقدر أن تحدث
هناك مشابهة ليس لها أصل في العقل ، وانما المعنى أن هناك مشابهات
خفية يدق المسلك اليها ، واذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل
ولذلك يشبه المدقق في المعاني بالغائص على الدر (٨٨) . ويقول : « فاذا مدت

(٨٤) أسرار البلاغة ص ١١٠ والمثل السائر ج ١ ص ٢٨ .

(٨٥) نفس المصدر ص ٢٨ .

(٨٦) أسرار البلاغة ص ١٣٨ .

(٨٧) نفس المصدر ص ١٣٦ .

(٨٨) نفس المصدر ص ١٣٩ .

الحلقات لجري الجياد ، ونصبت الأهداف لتعرف فضل الرماة في الابعاد والسداد ، فرهان العقول التي تستبقي ، ونضالها الذي تمتحن قواها في تعاطيه هو الفكر والروية والقياس والاستنباط . ولن يبعد المدى في ذلك ولا يدق المرمى (٨٩) وهناك يجد الشاعر سبيلا الى أن يبذل ويذل ، ويبدى في اختراع الصور ويعيد ، ويصادف مصطربا كيف شاء واسعا ، ومددا من المعاني متتابعا ويكون كالمغترف من عد لا ينقطع ، والمستخرج من معدن لا ينتهي . وأما القبيل الأول فهو فيه كالمقصود المداني قيده ثم هو في الأكثر يسرد على السامعين معاني معروفة ، وصورا مشهورة ، ويتصرف في أصول وهي ان كانت شريفة فانها كالجواهر تحفظ أعدادها ، وكالأعيان الجامدة التي لا تنمى ولا تزيد ، ولا تربح ولا تفيد ، وكالحسناء العقيم ، والشجرة الرائقة لا تمتع بجني كريم وهذا قول من قال «خير الشعر أكذبه» فهذا مراده لان الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلا ونفعا وانحطاطا وارتفاعا بأن ينحل الوضع صفة من الرفعة هو منها عار ، أو يصف الشريف بنقص وعار . وانما لان الصفة انما تمد باعها وتشر شعاعها ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها ، حيث يعتمد الاتساع والتخييل (٩٠) ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطف والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والاغراق في المدح والذم والوصف والنعته والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والاعراض (٩١) .

وبهذا يكون التمثيل الضمني كما يقول الامام عبد القاهر : ٠٠٠ وهل تشك في انه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشتم والمعرق ، وهو يريك للمعاني الممثلة بالالوهام شبيها في الاشخاص الماثلة ، والاشباح القائمة ، وينطق لك الاخرس ، ويعطيك البيان من الاعجم ، ويريك الحياة في الجماد ، ويريك الثمام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين (٩٢) !؟

(٨٩) أسرار البلاغة ص ١٣٦ .

(٩٠) نفس المصدر ص ٢٥١ .

(٩١) نفس المصدر والصفحة .

(٩٢) نفس المصدر ص ١٣٦ .

وأمثلته في الشعر كثيرة من ذلك قول أبي تمام :

وطول مقام المرء في الحي مخلوق
لدياجيته فاعترّب تتجدد
فانني رأيت الشمس زيدت محبة
الى الناس ان ليست عليهم بمرمد (٩٣)

وقوله :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحينئذ أبدا لأول منزل (٩٤)

وقوله :

واذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف طيب عرف العود (٩٥)

وقوله :

لا تنكروا ضربي له من دونه
مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس (٩٦)

وقول ابن الرومي :

كل امرئ مدح امراً لنواله
وأطال فيه فقد أساء هجاءه

(٩٣) المصدر السابق ص ١١٨ .

(٩٤) نفس المصدر ص ١١٢ .

(٩٥) نفس المصدر ص ١٠٨ .

(٩٦) اسرار البلاغة ص ١٠٥ المثل السائر ج ١ ص ٢٣ .

لو لم يقدر ثم بعد المستقى
عند الورود لما أطال رشاءه (٩٧)

وقوله :

عسوك من صديقك مستفاد
فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه
يكون من الطعام أو الشراب (٩٨)

وأما منهج القرآن الكريم في التشبيه الضمني فهو تشبيه مئة بالمئة من التوكيد ومن ثم فان المشبه به الذي يأتي ضمنا لا يخسر من قوته شيئا بل يكاد يكون التوكيد اللفظي والمعنوي للمقدمة الاولى . ان البشر من خلال مواقفهم مختلفون ومن ثم فان مقدمة كل واحد في التشبيه الضمني لهي دعوى قد تكون عامة وقد تكون شخصية او قومية او نسبية . ان علم الناس بالقضايا المختلفة لهي جزئية لانهم لا يمتلكون بعدي الزمان والمكان . وجائز ان يقوم الشاعر بمدح سيف الدولة مثلا ويرفعه الى السماء من حيث مجاوزة الاطراء ثم يتكشف له فيما بعد ما يسوء . فأين ثمة تكون المقاييس والأحكام ؟

ان الله تعالى الذي يحيط بالمكان والزمان ليمتنزل بالمقدمات تنزلات الحق الذي لا جمجمة فيه واذا فان مقدمات التشبيه الضمني بالقرآن لهي أحكام وتقرير . واذا كان المشبه حكما فان المشبه به لا يناله شيء من النقصان وقد حشر مع المشبه على ذات الصعيد ، انه زيادة الشرح والايضاح والقوة تماما كما في قوله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) يس ٧٨ ، ٧٩ .

فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق ، مستغنية بنفسها كما يقول ابو هلال العسكري - عن الزيادة فيها ، لأن الاعادة

(٩٧) المثل السائر ج ١ ص ٢٤ .

(٩٨) نفس المصدر ص ٢٥ .

ليست بأصعب في العقول ابتداء (٩٩) ، ثم قال تعالى : (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا انتم منه توقدون) يس : ٨٠ . فزادها شرحا وقوة لأن من يخرج النار من أجزاء الماء ، وهما ضدان ، ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه (١٠٠) .

هذا لدى المسلم المصدق المستيقن أما الكفر والملحد والدهري فسيكون تصديقه بالمقدمة الاولى تصديقا مشوبا بالتلكؤ والتردد ولكن المشبه به سيكون من الوضوح الذي لا يستطيع معه الا التسليم والاذعان . ومن التشبيه الضمني في القرآن الكريم قوله تعالى : (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدهم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) الحجرات : ١٢ .

هنا شبه رب العالمين ضمنا مغتاب أخيه المسلم بمن يأكل لحمه وهو جيفة ، وإذا كان الناس لا يناقشون في كراهية المشبه به ، فعليهم أن يسلموا بكراهية المشبه .

ومثله قوله تعالى : (واغضض من صوتك ان انكر الأصوات لصوت الحمير) لقمان : ١٩ .

هنا شبه رب العالمين ضمنا الصوت المنكر بأصوات الحمير . وإذا كان المشبه به في الوضوح بما يسلم به ولا يناقش ، فينبغي ان يسلم بالمشبه .

ونلاحظ ان هذا النمط من التشبيه الضمني يكون في المواقف سواء من حيث التصديق أو عدم التصديق أو من حيث مقاييس الأخلاق وضوابط الشخصية .

الغموض الفني :

وإذا كان من المركز في الطبع أن الشيء إذا نبيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نبيله أحلى ، وموقعه مسن

(٩٩) كتاب الصناعتين ص ٢٤ .

(١٠٠) نفس المصدر والصفحة .

النفس الطّف - أفيلزم هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعهد ما يكسب
المعنى غموضاً - مشرفاً له وزائداً في فضله ؟ فالجواب كما يقول الامام
عبد القاهر : اني لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب ، وانما أردت القدر
الذي يحتاج في نحو قوله : فان المسك بعض دم الغزال ، فانك تعلم على
كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجواهر في الصدف لا يبرز لك الا
أن تشقه عنه (١٠١) .

وأما التعقيد فانما كان لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذي بمثله
تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع الى أن يطلب المعنى بالحيلة
اليه من غير الطريق ، كقوله (المتنبي) .

ولذا اسم أغطية العيون جفونهما
من أنها عمل السيوف عوامل

وانما ذم هذا الجنس لانه يحوجك الى فكر زائد على المقدار الذي يجب في
مثله (١٠٢) . وانما يزيدك الطلب فرحاً بالمعنى وانسا به وسروراً بالوقوف
عليه اذا كان لذلك أهلاً ، فاما اذا كنت معه كالغائض في البحر يحتمل
المشقة العظيمة ويخاطر بالروح ثم يخرج الخرز فالامر بالضد مما
بدأت به (١٠٣) .

التشبيه المقلوب :

ومن استطالة الدعوى في اتخاذ المواقف المبالغة ، والمغالاة ، الزعم أن
الصفة في المشبه هي الاصل وان المشبه به انما هو فرع يستمد منها ،
ويتكئ عليها .

من ذلك قول أبي تمام :

خلق أطلس من الريح كأنه

خلق الامام وهديّة المتيسر (١٠٤)

(١٠١) اسرار البلاغة ص ١٢٨ .

(١٠٢) نفس المصدر ص ١٢٩ .

(١٠٣) نفس المصدر ص ١٣٠ .

(١٠٤) المثل السائر ج ٣ ص ١٢٢ .

فخلق الامام (المأمون) أصل يستقي منه الربيع ويحكي أخلاقه ،
ومن يكون الأصل ومن يكون الطارئ المأمون أم الربيع ؟ وهنا تتضح المغالاة
في قلب التشبيه وتغييره عن أصله .

ومن ذلك قول البحثري في مدح المتوكل (من وصف البركة) :

كانها حين لجت في تدفقها

يد الخليفة لما سال واديهـا (١٠٥)

يد الخليفة المشبه به وجريان البركة المشبه ، فمن يكون الاصل ومن
يكون الطارئ ؟ انها انتقائية الشعراء !

ومن ذلك قول القاضي التنوخي :

وكان النجوم بين دجاء

سنن لاح بينهما ابتداء (١٠٦)

كان السنن هي الاصل والنجوم فرع ، وعكس ذلك أن تشبه السنة
والهدى والشرعية بالنور . قال صلى الله عليه وسلم « أتيتم بالحنيفية
البيضاء ليلها كنهارها » (١٠٧) .

ومن ذلك قول أبي طالب الرقي :

ولقد ذكرتكم والظلام كأنه

يسوم النوى وفؤاد من لم يعشق (١٠٨)

وقول ابن بابك :

وأرض كأخلاق الكريم قطعتها

وقد كحل الليل السماك فأبصرا (١٠٩)

(١٠٥) المصدر السابق ص ١٢٧ .

(١٠٦) سر الفصاحة ص ٢٢٩ و اسرار البلاغة ص ٢٠٧ .

(١٠٧) أسرار البلاغة ص ٢٠٩ .

(١٠٨) نفس المصدر ص ٢١٠ .

(١٠٩) نفس المصدر ص ٢١٣ .

فأصبح الكريم الطاريء أصلا ، والأرض الثالثة فرعا .
 ومثله ما كتب الصاحب الى القاضي أبي الحسن (الجرجاني) :
 يا أيها القاضي الذي نفسي له
 مع قرب عهد لقائه مشتاقه
 أهديت عطرا مثل طيب ثنائه
 فكأنما أهدي له أخلاقه (١١٠)
 فأخلاق أبي الحسن أصيلة وطيب العطر طاريء .

وقد تبينا أن التشبيه في القرآن الكريم كان معادلات متساوية تساوي
 ركبتي البعير ، ولا غرو في ذلك ، فإن آيات القرآن الكريم كانت معادلات
 بين النص المسطور وبين النص المنظور ، معادلات بين العوالم الالهية وبين
 المدركات البيئية . انها عبور للحقائق والأسرار والغيب ومقاصد الشرع
 عبر قناطر اللغة من المجاز والتشبيه وتصريف الأمثال وسرد القصص وسوق
 العبر والدعوة الى النظر والتأمل والاستدلال .

الاستعارة :

التشبيه من حيث اكتماله ضربان :
 ١ - تشبيه تام : وهو ما ذكر فيه المشبه والمشبّه به .
 ٢ - التشبيه المحذوف : وهو ما ذكر فيه أحد طرفي التشبيه ويسمى
 « استعارة » (١١١) .

والاستعارة لغة مأخوذة من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة
 وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئا من الاشياء ، ولا يقع ذلك الا
 من شخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضي استعارة احدهما من الآخر
 شيئا (١١٢) وعرفها ابو الحسن الرماني فقال : هي تعليق العبارة على غير

(١١٠) اسرار البلاغة ص ٢١٦ .

(١١١) تلخيص المفناح ص ٢٩٥ والتعريف للسكاكي .

(١١٢) نفس المصدر ص ٧٧ .

ما وضعت في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة (١١٣) والجمهور على أنها مجاز لغوي بمعنى أنها لفظ استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة (١١٤) .

مثال : قال المتنبي في وصف سيف الدولة :

ولم أر قبلي من مشى البحر نحوه

ولا رجلاً قامت تعانقه الأسد (١١٥)

لو تأملنا لفظة البحر هنا وسألنا : هل لفظة البحر هنا هي ما تدل عليه في أصل اللغة ؟ بكلام آخر : هل البحر في البيت هو مجتمع الماء ؟ وإذا كان كذلك فهل يمشي البحر ؟ وما ثمة يكون المعنى . أما أن البحر يمشي فذلك لا مراء فيه فالبحر يأخذ من اليابسة باستمرار ، والأنهار تأخذ من اليابسة . وها هي الموانئ الحديثة تصنع في البر ثم يلحق بها البحر . ومن حيث النحو فإن السياق يصح أن لو مشى البحر أم لم يفعل . وإذا يبقى شيء فوق النحو يقرر معنى البيت الا وهو البيان .

ترى هل أراد المتنبي ان يقول انني لم ار أحدا قبلي مشى مجتمع الماء نحوه ؟ وواضح ان ذلك لا يفي بتصور محكم .

وإذا يكون البحر هنا شيئاً آخر غير ما وضعت له لفظة البحر في دلالة اللغة . ان لفظة البحر هنا مجازية وتعني الرجل الكريم .

ان مبدأ الاقتصاد في اللغة يحتم ان تواجه الثروة اللغوية من المفردات كل الوان الجودة والا لاقتضى كل معنى جديد لفظة جديدة ، وهذا مالا سبيل اليه . واذن تلجأ اللغات الى الاستعارة . فاستعار المتنبي لفظة البحر بدلالتها التي قد وضعت له في أصل اللغة وهو مجتمع الماء الكبير ، واستخدامها في بنائه استخداماً فنياً . ان البحر يمنح القريب اسماكا ولآلىء وأملاحا ويرسل للبعيد سحائب . انه مثل أعلى في الجود .

(١١٣) سر الفصاحة ص ١٣٤ .

(١١٤) النفاذاني على الملخص ص ٢٦٩ وهو تعريف الاستعارة عند البلاغيين . انظر :

The Lively Rhetoric, P. 235.

(١١٥) اسرار البلاغة ص ٢٨٢ .

لقد نظر المتنبي في ممدوحه فأراد ان يتلطف للتعبير عنه بشيء فيه صفة الجود ظاهرة لا سبيل الى دفعها ، فحين أراد ان يقول من مشى **الكريم** نحوه ، قال من مشى **البحر** نحوه . وواضح ان **البحر** هنا مجازية بمعنى الكريم ، وهي المشبه به في الكرم . والذي يحدد مجازية اللفظة هو السياق وطبيعة المقام وهذا موضع في غاية اللطف لا يبين الا اذا كان المتصفح للكلام حساسا يعرف وحي طبع الشعر وخفي حركته التي هي كانه خلس وكسرى النفس في النفس (١١٦) .

وبعد هذه الاستعارة للفظه للدلالة على الكريم تعود اللفظة لتظل تدل على البحر من حيث هو مجتمع الماء الكبير . ولانه قد حذف المشبه وصرح بالمشبه به فالاستعارة تصريحية (١١٧) .

ولفظه الاسد هنا هي مجازية ايضا اذ لا معنى ان تقوم الاسد من حيث دلالتها في أصل اللغة وهي السباع في تقبيل سيف الدولة . وواضح انه اريد بالسباع هنا قادة سيف الدولة الشجعان . فاستعيرت لفظه الاسد لتحقيق الشجاعة فيها بوضوح لتؤدي معنى جديدا يقرره المتنبي في بنائه الفني . وفيما سوى هذا الاستخدام الخاص الذي أخرج اللفظة عن حقيقتها فان لفظه الاسد تعود لتؤدي دورها الذي قد اصطلحت عليه في اللغة .

وواضح ان العلاقة بين الشجعان والاسد هي المشابهة وان قد حذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية .

مثال :

قال الحجاج بن يوسف الثقفي :

« اني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها ، وكأني أنظر الى الدماء بين العمام واللحى » وذلك بسبب من تخلفهم عن بيعة عبد الملك بن مروان (١١٨) .

(١١٦) أسرار البلاغة ص ٢٨٣ .

(١١٧) تلخيص المفتاح ص ٢٩٥ .

(١١٨) المتل السائر ج ٢ ص ٩٨ .

ان لفظة أينعت في هذا السياق ان لو وضعت فيما ينبغي أن توضع فيه من حيث حقيقة اللغة لكانت ثقلت . والمعنى في أصل اللغة : اني لأرى رؤوسا قد ثقلت . وواضح ان العلاقة بين الثقل واليناعة هي المشابهة . وهكذا حذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية .

ان الثمرة اذا أينعت تكون على وشك السقوط ومن ثم فهي في أعلى صفة الوهي والتهافت أكثر وضوحا ، كما ان البحر اكثر دلالة على الكرم والأسد اكثر دلالة على الشجاعة .

أما ما يذهب اليه من اجراء الاستعارة في الرؤوس وانها المشبه والثمار هي المشبه به المحذوف والمكنى عنه بشيء من لوازمه وهو اينعت فيتناهى وفلسفة المجاز في اللغة . ان اللفظة تستعار من حيث مدلولها في حقيقة اللغة لتؤدي معنى خارجا عن الحقيقة في سياق معين ودلالة معينة ثم تعود بعد ذلك لتمارس وظيفتها في حقيقة اللغة . لفظة رؤوس ليست هنا مجازية بل هي أوردت مورد الحقيقة واذن فلا استعارة فيها . يقول الامام عبد القاهر : الاستعارة ان تريد تشبيه الشيء بالشيء ، ان تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه . (دلائل ص ٤٥) . وقد أكد هذا المعنى : القزويني حيث قال : « ودليل أنها مجاز لغوي : كونها موضوعة للمشبه به لا للمشبه » (١١٩) . وضياء الدين بن الأثير حين قال : ان الاستعارة هي ما ذكر فيه المشبه به دون المشبه (١٢٠) . ويقول الامام عبد القاهر : « اعلم ان الاستعارة في الجملة ان يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في ذلك الأصل (١٢١) » .

(١١٩) تلخيص المفتاح ص ٢٦٩ .

(١٢٠) المنل السائر ج ٢ ص ٧١ .

(١٢١) اسرار البلاغة ص ٢٩ .

وينبغي أن يكون مسوغ لاستخدام الاستعارة في اللغة حتى يفضل المجاز الحقيقة . وقد عرف أرسطو الاستعارة بأنها قوة وضع الاشياء تحت المجهر وقال ان الاستعارة سمة العبقرية ، ذلك لانها تبرز البيان في صورة مستجدة . تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا كما يقول الامام عبد القاهر (١٢٢) . ومن خصائصها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ، وانك لترى بها الجماد حيا ناطقا ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس المبينة ، والمعاني الخفية بادية جليلة (١٢٣) . وهي موضع لا يتبين سره الا من كان ملتهب الطبع ، حاد القريحة (١٢٤) . وكقول الامام عبد القاهر : فانك اذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله او كله رمزا أو حيا وكناية وتعريضا وايماء الى الغرض من وجه لا يفطن له الا من غلغل الفكر وأدق النظر ، ومن يرجع من طبعه الى المعية يقوى معها على الغامض ، ويصل بها الى الخفي (١٢٥) .

والاستعارة تكون في الاسم مثل : كان الشباب مطية الجهل (١٢٦) .

والكلام في أصل اللغة : كان الشباب طريق الجهل .

طريق : المشبه

مطية : المشبه به

وواضح ان المطية أقرب الى الوضوح بسبب من كونها في الاحياء

والاستعارة تصريحية .

وتكون في الفعل مثل :

أخبرتني أسرار وجهه بما في ضميره (١٢٧) .

وأصل الكلام في اللغة : دلتنني .

(١٢٢) المصدر السابق ص ٤١ .

(١٢٣) نفس المصدر والصفحة .

(١٢٤) دلائل الإعجاز ص ٢٩٣ .

(١٢٥) نفس المصدر ص ٢٩٦ .

(١٢٦) أسرار البلاغة ص ٤٦ .

(١٢٧) نفس المصدر ص ٥٣ .

الدلالة : المشبه

الاخبار : المشبه به

ويفضل الاخبار الدلالة بفضل انتمائه الى الانسان الذي ينقل الخبر ،
فهو فيه فضل حياة ، على سبيل الاستعارة التصريحية .

وفي الحديث : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله
كلما سمع هيعة طار اليها » (١٢٨) .

وأصل الكلام في اللغة :

كلما سمع هيعة ذهب اليها .

ذهب : المشبه

طار : المشبه به .

ويفضل المشبه به المشبه بسبب من اتصاله بالطيور وهو أمر واضح
الحياة والخفة على سبيل الاستعارة التصريحية . ومثله قول المتنبي :

نثرتهم فوق الاحيدب نثرة كما نثرت فوق العروس الدراهم (١٢٩)

الكلام في أصل اللغة : فرقته

فرقتهم : المشبه

نثرتهم : المشبه به

ويفضل نثرتهم فرقته في أن النثر فيه قوة القبض ثم قوة التفريق ،
على سبيل الاستعارة التصريحية .

الاستعارة من حيث وجه الشبه : عقلي وتحقيقي .

الاستعارة العقلية :

وهي الاستعارة التي تقوم على مشابهة ويتهدى اليها باعمال العقل .

(١٢٨) نفس المصدر والصفحة . تلخيص المنهاج ص ٢٧٥ .

(١٢٩) نفس المصدر ص ٥٤ .

كقوله تعالى (واتبعوا النور الذي أنزل معه) ١٥٦/٧ .

شبه الاسلام بالنور :

الاسلام : المشبه

النور : المشبه به / على سبيل الاستعارة التصريحية والعلاقة بين الاسلام والنور هي شبه عقلي .

وكقوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) ١/٥ .

شبه الدين بالصراط .

الدين : مشبه

الصراط : مشبه به / على سبيل الاستعارة التصريحية والعلاقة بين الدين والصراط شبه عقلي .

أصول الاستعارة العقلية (١٣٠) :

١ - ان يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة ، مثل : استعارة النور للايمان ، والظلام للكفر .

٣ - ان يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة الا ان الشبه عقلي مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : اياكسم وخضراء الدمن المشبه المرأة الحسناء في المنبت السوء .

المشبه به : خضراء الدمن / على سبيل الاستعارة التصريحية ومما لا يكون الشبه فيه الا عقليا قولنا في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم « ملح الأنام » وهو مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام : مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام لا يصلح الطعام الا بالملح . قالوا : فكان الحسن رحمه الله عليه يقول : فقد ذهب ملحنا فكيف نصنع . فانت تعلم - كما يقول الامام عبد القاهر - ان لا وجه ههنا للتشبيه الا من طريق الصورة العقلية (١٣١) .

(١٣٠) أسرار البلاغة ص ٦١ .

(١٣١) نفس المصدر ص ٦٤ .

٣ - تشبيه المعقول بالمعقول : مثال قوله تعالى : (أو من كان ميتا فأحييناه) ١٢٢/٦ .

من حصل له العلم بوحدانية الله تعالى وبما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم كأنه إنما وجد الحياة (١٣٢) .

الميت	خاللي الذهن من العلم
المشبه به (شبه عقلي)	المشبه
وجد الحياة	من حصل له العلم
مشبه به (شبه عقلي)	مشبه

ب - الاستعارة التحقيقية : كقول الشاعر :

لدى أسد شاكي السلاح مقذف .

يقصد الرجل الشجاع . والاستعارة يتحقق معناها حسا (١٣٣) والاستعارة من حيث كونها مفردة أو متخيلة ضربان :

١ - المفردة : وهي استعارة لفظة بدل لفظة كقوله صلى الله عليه وسلم : خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها .

فاستخدم طار بدل ذهب أو أسرع .

٢ - المتخيلة : وهي تخيل صورة جديدة والاستعانة بها في القاء مزيد من الوضوح والتفصيلات كقول أبي ذؤيب الهذلي :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

شبه المنية بالسبع في اغتيال النفوس بالقهر والغلبة فأثبتت

لها الأظفار (١٣٤) .

(١٣٢) أسرار البلاغة ص ٦٨ ، وانظر : تلخيص المفتاح ص ٢٧٤ .

(١٣٣) تلخيص المفتاح ص ٢٦٨ .

(١٣٤) تلخيص المفتاح ص ٢٨٩ وانظر : كتاب البديع ص ٦١ .

وقول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعري أفراس الصبا ورواحله
أراد ان يبين أنه ترك ما كان يرتكبه زمن المحبة من الجهل ،
وأعرض عن معاودته ، فبطلت آلاته ، فشبه الصبا بجهة من جهات
المسير كالحج والتجارة ، قضى منها الوطر ، فأهملت آلاتها ،
فأثبتت له الأفراس والرواحل (١٣٥) .

وقول النابغة :

وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب
أراد قوله أراح الليل عازب همه : هذا من مستعار من اراحة
الراعي الابل الى موضعها الذي تأوي اليه (١٣٦) .

وقول طفيل الغنوي :

وجعلت كوري فوق ناجية تقنات لحم سنامها الرحل
لان الشحم لما كان من الاشياء التي تقنات ، وكان الرحل
يتخونه ويذيه ، كان ذلك بمنزلة من يقتاته (١٣٧) .

وقول امرئ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

نماذج من الاستعارة في القرآن الكريم :

١ - قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا
يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى
السجود وهم سالمون) القلم : ٤٢ ، ٤٣ .

(١٣٥) تلخيص المفتاح ص ٢٩ والبدیع ص ٨ .

(١٣٦) البدیع ص ٨ .

(١٣٧) سر الفصاحة ص ١٢٧ وانظر البدیع : ص ١٠ .

(١٣٨) سر الفصاحة ص ١٣٨ ، وانظر البدیع ص ٧ .

الأصل : يوم يكشف عن شدة الأمر .

قال رويشد بن رميضر العنبري :

قد شمرت عن ساقها فشددوا

وجدت الحرب بكم فجددوا

وهو ما استشهد به الحجاج في خطبته .

المشبه : شدة الأمر .

المشبه به : ساق (١٣٩) .

والمشبه به يفضل المشبه فضل التجسيد على المعنوي أو فضل

الكائن الحي على المعنوي على سبيل الاستعارة التصريحية .

٢ - قوله تعالى : (ولا يظلمون نقيرا) النساء : ١٢٤ .

٢ - قوله تعالى : (ولا يظلمون فتिला) النساء : ٤٩ .

٤ - قوله تعالى : (ولا يظلمون شيئا) مريم : ٦ .

٥ - قوله تعالى : (ما يملكون من قطمير) فاطر : ١٣ .

٦ - قوله تعالى : (لا يملكون شيئا) الزمر : ٤٣ .

القطمير : القشرة الرقيقة على النواة .

النقيير : النكتة في النواة .

الأصل : ولا يظلمون عملا .

المشبه : عملا .

المشبه به : نقيرا ، أو فتिला ، أو قطمير ، شيئا - ويفضل

المشبه به المشبه في كل كما يفضل الشيء الذات والمحسوس المعنوي

على سبيل الاستعارة التصريحية .

٧ - قوله تعالى : (سنفرغ لكم أيها الثقلان) الرحمن : ٣١ .

المشبه : سنقصده .

(١٣٩) تلخيص البيان ص ٣٤١ .

المشبه به : نفرغ (١٤٠) / على سبيل الاستعارة التصريحية .

ويفضل المشبه به المشبه لان نفرغ تفيد التوفر على هذا الامر وحده دون غيره بينما نقصد تشمل الامر وغيره . فاين ثمة نقص من نفرغ من حيث قوة الدلالة .

٨ - قوله تعالى : (وأفئدتهم هواء) ابراهيم : ٤٣ .

المشبه : فارغة .

المشبه به : هواء (١٤١) على سبيل الاستعارة التصريحية .

وما كان مليئا بالهواء فهو في حكم الفارغ . ويفضل المشبه به المشبه فضل الذي يحس على المعنوي . وواضح أن الهواء له وزن وحجم وهو يدير الطواحين ويسوق السفن الشراعية ويجتاح المدن وال عمران اذا كانت سرعة الهواء كبيرة .

٩ - قوله تعالى : (أعثرنا عليهم) الكهف : ٤١ .

المشبه : دللنا .

المشبه به : أعثرنا (١٤٢) / على سبيل الاستعارة التصريحية .

الدلالة قد تكون الجمادات كما تدل البعرة على البعير والحجر على الطريق وقد تكون في المعنويات .

أما العثر فهو امر يتصل بالانسان ويختص به . ثم ان العثر فيه معنى غفلة القوم كأن المعجزة كانت قاب قوسين أو أدنى ولكن أمر كشفها كان بسبب طارئ وبسيط .

١٠ - قوله تعالى : (او من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به

في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) الأنعام : ١٢٢ .

المشبه : الهدى .

(١٤٠) تلخيص البيان ص ٣٢٢ والفلك الدائر ص ١٩٦ .

(١٤١) تلخيص البيان ص ١٨٤ .

(١٤٢) تلخيص البيان ص ٢١٠ .

- المشبه به : النور / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- والنور شيء محسوس يفضل المعنوي في وضوح الدلالة (١٤٣) .
- ١١- قوله تعالى : (ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك) الشرح : ٢ .
- المشبه : الهم وما كان يعانيه الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمور المستعصية (١٤٤) .
- المشبه به : الوزر (وهو ما يحمله الانسان) / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- والحمل شيء مادي محسوس ويفضل المعنوي في وضوح الدلالة .
- ١٢- قوله تعالى : (ولستم بأخذيهِ الا ان تغمضوا فيه) البقرة : ٢٦٧ .
- المشبه : ترخصوا .
- المشبه به : تغمضوا / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- ويفضل المشبه به المشبه فضل التشخيص وهو ما يتصل بالعين وحركتها على المعنوي .
- ١٣- قوله تعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) البقرة : ١٨٧ .
- المشبه : ملازم .
- المشبه به : لباس (١٤٥) / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- ويفضل المشبه به المشبه فضل المحسوس المتشكل على هيئة مخصوصة المعنوي . والملازمة قد تكون جسدا وقد تكون فكرا وتعلقا .
- ١٤- قوله تعالى : (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)
- الفرقان : ٢٣ .

(١٤٣) انظر : تلخيص المفتاح ص ٢٧٣ .

(١٤٤) تلخيص البيان ص ٣٦٨ .

(١٤٥) المثل السائر ج ٢ ص ١١٣ .

المشبه : عمدنا •

المشبه به : قدمنا (١٤٦) / على سبيل الاستعارة التصريحية •
والقدوم يكون بعد تراخ ، كأنه قد كان يستدرجهم ، وكان يمهل
ولا يهمل •

المشبه : عدما •

المشبه به : هباء منثور / على سبيل الاستعارة التصريحية •
والهباء المنثور لا يساوي شيئا ولكن المحسوس المشاهد يفضل
المعنوي في قوة الدلالة والوضوح •

١٥- قوله تعالى : (انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) الحاقة : ١١ •

المشبه : علا وارتفع •

المشبه به : طغى / على سبيل الاستعارة التصريحية •
والطغيان علو فيه معنى الغلبة والقهر والتسلط فهو الى أن يكون
صفة انسانية تحكمية أقرب (١٤٧) • واذن فهو فضل التشخيص
على المعنوي والجماد •

١٦- قوله تعالى : (بريح صرصر عاتية) الحاقة : ٦ •

المشبه : شديدة •

المشبه به : عاتية / على سبيل الاستعارة التصريحية •
والعتو شدة فيها قوة وتمرد (١٤٨) •

١٧- قوله تعالى : (سمعوا لها شهيقا وهي تفور • تكاد تميز من الغيظ)

الملك : ٧ ، ٨ •

المشبه : الصوت الشديد •

(١٤٦) الفلك الدائر ص ١٩٦ - ١٩٧ •

(١٤٧) تلخيص المفتاح ص ٢٨٠ •

(١٤٨) سر الفصاحة ص ١٢٧ وتلخيص البيان ص ٣٤٣ •

المشبه به : الشهيق (١٤٩) وهو امتصاص الهواء ويكون وقت حركة
نشطة للتنفس أو حلول الهواء البارد محل الهواء الساخن .

المشبه : تنشق .

المشبه به : تميز / على سبيل الاستعارة التصريحية .

التميز يكون التباين على غير ما تجانس بينا الانشقاق يكون بين
قطعتين متجانستين .

المشبه : التوهج والغليان .

المشبه به : الغيظ وهو سمة انسانية / على سبيل الاستعارة
التصريحية .

١٨- وقوله تعالى : (ولما سكنت عن موسى الغضب) الأعراف : ١٥٤ .

المشبه : سكن .

المشبه به : سكنت (١٥٠) / على سبيل الاستعارة التصريحية .

والسكوت سمة تشخيصية علاقتها بالأحياء وواضح فضلها في
الوضوح والدلالة .

١٩- قوله تعالى : (فمحونا آية الليل) الاسراء : ١٢ .

المشبه : كسفنا .

المشبه به : محونا / على سبيل الاستعارة التصريحية .

والكشف يكون من الريح ويكون من الظواهر الطبيعية بينا المحو
سمة انسانية . ثم أن الكشف قد لا يكون كلياً بينا المحو فيه معنى
القوة وعدم مغادرة أي جزء .

٢٠- قوله تعالى : (وجعلنا آية النهار مبصرة) الاسراء : ١٢ .

المشبه : مضئئة .

(١٤٩) تلخيص البيان ص ٣٤٠

(١٥٠) الفلك الدائر ص ١٩٦

المشبه به : مبصرة / على سبيل الاستعارة التصريحية .
الاضاءة تكون من الجوامد والظواهر بينما الابصار من سمات
الأجسام الحية فهو أقوى في الحياة والوضوح .

٢١- قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا) مريم : ٤ .

المشبه : انتشر .

المشبه به : اشتعل / على سبيل الاستعارة التصريحية .
وسرعة انتشار النار أكبر من سرعة انتشار الشيب ففيه فضل
الوضوح (١٥١) .

٢٢- قوله تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) الأنبياء : ١٨ .

المشبه : نورد .

المشبه به : نقذف (١٥٢) / على سبيل الاستعارة التصريحية .
والقذف أبلغ من الايراد ، لان فيه شدة الوقع ، وفي شدة الوقع
بيان القهر وهو هاهنا ازالة الباطل على جهة الحجة لا على جهة
الشك والارتياب .

المشبه : يذهبه .

المشبه به : يدمغه / على سبيل الاستعارة التصريحية .
والدمغ أشد من الاذهاب لان في الدمغ من شدة التأثير وقوة النكاية
ما ليس في الاذهاب . وأصله في اللغة أصاب دماغه بالضرب وهو
مقتل .

٢٣- قوله تعالى : (عذاب يوم عقيم) الحج : ٥٥ .

المشبه : يوم شديد .

(١٥١) سر الفصاحة ص ١٣٤ وانظر البديع ص ٣ ونلخص البيان ص ٢٢٠ والمثل السائر

ج ٢ ص ١١٣ .

(١٥٢) تلخيص البيان ص ٢٢٨ .

المشبه به : يوم عقيم (١٥٣) / على سبيل الاستعارة التصريحية .
والعقيم التي لا تجيء بولد ، والولد من أعظم النعم ، وأجسم
الخيرات ، ولهذا قالت العرب : شوهاء ولود خير من حسناء عقيم .
فالعقم أقوى في التعبير عن السخط والشدة ، وهو سمة تتصل
بالأحياء .

٢٤- وقوله تعالى : (اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) الذاريات : ٤١ .
المشبه : غير الممطرة .

المشبه به : العقيم / على سبيل الاستعارة التصريحية .
والعقم سمة الكائنات الحية وهو اوضح .

٢٥- قوله تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) يس : آية : ٣٧ .
المشبه : نخرج .

المشبه به : نسلخ / على سبيل الاستعارة التصريحية .
والنسلخ تجسيد ويكون في الشيء الملتحم بعضه ببعض وهو لذا
أقوى من الإخراج وهو مما يشترك فيه الحي وغيره من
الظواهر (١٥٤) .

٢٦- قوله تعالى : (فأنشرنا به بلدة ميتا) الزخرف : ١١ .
المشبه : أظهرنا .

المشبه به : أنشرنا (١٥٥) / على سبيل الاستعارة التصريحية .
والنشرور أبلغ في الدلالة لانه انبعث لما كان قد مات ولا سبيل الى
أحيائه وأما الظهور فيعني أن لا كبير جهد أكثر من الكشف
والإظهار .

(١٥٣) البديع ص ٣ .

(١٥٤) تلخيص البيان ص ٢٧٤ . سر الفصاحة ص ١٢٧ ، تلخيص المفتاح ص ٢٧٨ .

(١٥٥) تلخيص البيان ص ٣٠٠ .

٢٧- قوله تعالى : (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) الأنفال : ٧ •

المشبه : الحرب •

المشبه به : الشوكة وهو حد السلاح / على سبيل الاستعارة
التصريحية •

وحد السلاح أبين وأوضح من المعنوي لانه محسوس •

٢٨- قوله تعالى : (واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) السجدة : ٥١ •

المشبه : كثير •

المشبه به : عريض / على سبيل الاستعارة التصريحية •

والعرض أقل وحدة في الأبعاد والمساحات والحجوم فاذا كان العرض
عريضا فان آفاق الاتساع لهي اكبر بكثير جدا • ان طريقا طولها
عشرة ملايين كيلو مترا قد لا تزيد في العرض على خمسة أمتار فترى
ما يكون سعة المساحة ذات العرض العريض ؟

٢٩- قوله تعالى : (والصبح اذا تنفس) التكوثر : ١٨ •

المشبه : انتشر •

المشبه به : تنفس / على سبيل الاستعارة التصريحية •

والتنفس أمر يتصل بالأحياء فهو أقوى دلالة (١٥٦) •

٣٠- قوله تعالى : (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا) البقرة : ٢١٤ •

المشبه : ازعجوا •

المشبه به : زلزلوا / على سبيل الاستعارة التصريحية •

والزلزلة أشد من الازعاج علاوة كونها لفظة مصوتة •

٣١- قوله تعالى : (أفرغ علينا صبرا) البقرة : ٢٥٠ •

المشبه : أنزل •

(١٥٦) سر الفصاحة ص ١٢٧ •

- المشبه به : أفرغ / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- والا فراغ انزال يفيد سعة الشيء وكثرة وانصبابه (١٥٧) .
- ٣٢- قوله تعالى : (ضربت عليهم الذلة) آل عمران : ١١٢ .
- المشبه : وضعت .
- المشبه به : ضربت (١٥٨) / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- والضرب وضع فيه قوة وضغط وتثبيت كضرب النقود وضرب الخيمة .
- ٣٣- قوله تعالى : (فنبذوه وراء ظهورهم) آل عمران : ١٨٧ .
- المشبه : غفلوا عنه .
- المشبه به : نبذوه وراء ظهورهم (١٥٩) / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- والنبذ فيه معنى الاغفال المتعمد مع سبق الاصرار ومن ثم فهو أقوى وضوحا في الدلالة .
- ٣٤- قوله تعالى : (أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا) المائدة : ١١٤ .
- المشبه : سرورا .
- المشبه به : عيدا / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- والعيد يشتمل على السرور علاوة على لم شمل القريب والبعيد ، الكبير والصغير .
- ٣٥- قوله تعالى : (واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا . . . الآية) الأنعام : ٦٨ .

• (١٥٧) تلخيص البيان ص ١٢٠ .

• (١٥٨) نفس المصدر ص ١٢٥ .

• (١٥٩) نفس المصدر ص ١٢٦ .

المشبه : يتنقصون .

المشبه به : يخوضون / على سبيل الاستعارة التصريحية .
الخائض يطاء على غير بصيرة ، ومن ثم فالخوض اكبر في الدلالة على
الجهل المطبق من يتنقصون . اذ التنقص قد يعني الفهم وقد يعني
عدمه لكن تغيير النفس هو المهم بينا الخوض يدل على جهلهم بآيات
الله تعالى تماما .

٣٦- قوله تعالى : (ويغونها عوجا) الأعراف : ٤٤ .

المشبه : خطأ .

المشبه به : عوجا / على سبيل الاستعارة التصريحية .
والاعوجاج حسي مشاهد والخطأ معنوي ففضل المشبه به المشبه من
حيث الوضوح العملي والدلالة التطبيقية .

٣٧- قوله تعالى : (أو آوي الى ركن شديد) هود : ٨٠ .

المشبه : معين .

المشبه به : ركن / على سبيل الاستعارة التصريحية .
والركن مشاهد محسوس بينا المعين يكون حسيا ومعنويا وهو
أضعف . واذن يفضل المحسوس الكلبي المحسوس الجزئي .

٣٨- قوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) الاسراء : ٢٩ .

المشبه : ممسوكة .

المشبه به : مغلولة / على سبيل الاستعارة التصريحية .
والغلول علاوة كونية سمة انسانية فيها عامل التصميم والارادة
فهي اكثر دلالة على النفور من الامساك (١٦٠) .

٣٩- قوله تعالى : (ولنديقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر)

المسجدة : ٢١ .

(١٦٠) انظر : مر الفصاحة ص ١٢٧ و تلخيص البيان ص ٢٠٠ .

المشبه : ليمسّهم او يريهم او يسمعهم •

المشبه به : لنذيقنهم / على سبيل الاستعارة التصريحية •

والذوق له فضل على غيره من الحواس لانه أسرع الى الادراك وأقدر على التمييز • فالإنسان اذا رأى شيئاً ولم يعرفه مسه ، واذا مسه ولم يعرفه شمه ، واذا شمه ولم يعرفه ذاقه •

٤٠- وقوله تعالى : (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) الكهف :

• ١١

المشبه : غطينا •

المشبه به : ضربنا / على سبيل الاستعارة التصريحية •

والضرب تغطية مع قوة وتثبيت •

٤١- قوله تعالى : (واذا غربت تقرضهم ذات الشمال) الكهف : ١٧ •

يقول أبو هلال العسكري : ليس في جميع القرآن أبلغ ولا أفصح منه • وحقيقة القرض هنا أن الشمس تسقط عليهم وقتنا يسيراً ثم تغيب عنهم ، والاستعارة أبلغ ، لان القرض أقل في اللفظ من كل ما يستعمل بدله من الألفاظ ، وهو دال على سرعة الارتجاع • والفائدة ان الشمس لو طاولتهم بحرهما لصهرتهم ، وانما كانت تمسّهم قليلاً يقدر ما يصلح الهواء الذي هم فيه ، لأن الشمس اذا لم تقع في مكان أصلاً فسد (١٦١) •

المشبه : تنالهم بشيء يسير •

المشبه به : تقرضهم / على سبيل الاستعارة التصريحية •

والقرض العطاء الحسن الذي يرد •

٤٢- قوله تعالى : (جدارا يريد ان ينقض) الكهف : ٧٧ •

المشبه : يوشك •

(١٦١) كتاب المحامدين ص ٢٨٢ وانظر تلخيص البيان ص ٢١٠ •

المشبه به : يريد (١٦٢) / على سبيل الاستعارة التصريحية .
والارادة أمر يتصل بالحياة وبخاصة الانسان فهو أقوى في الدلالة
والوضوح .

٤٣- قوله تعالى : (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود
من الفجر) آل عمران : ١٨٧ .
المشبه : الشعاع .

المشبه به : الخيط / على سبيل الاستعارة التصريحية .
والخيط مادي محسوس بينا الشعاع طاقة . وواضح ان المادي
يفضل الطاقة من حيث الدلالة والوضوح .

روي ان عدي بن حاتم اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط في الآية وحمله
على ظاهره . فقد روي أنه قال : لما نزلت هذه الآية أخذت عقالا
أسود وعقالا أبيض فوضعتهما تحت وسادتي فنظرت فلم أتبين
فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ان وسادك لطويل
عريض انما هو الليل والنهار (١٦٣) .

٤٤- قوله تعالى : (وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) الزخرف : ٤ .
المشبه : أصل .

المشبه به : أم (١٦٤) / على سبيل الاستعارة التصريحية .
٤٥- ومثله قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات
هن أم الكتاب) آل عمران : ٧ .

٤٦- قوله تعالى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) الاسراء : ٢٤ .
المشبه : جانب .

(١٦٢) المخلص البيان ص ٢١٦ .
(١٦٣) أسرار البلاغة ص ٢٩٧ وحديث عدي في تفسير الطبري للآية وفي البخاري ٩٦/٢
ومسلم ١٥٦/٥ . وانظر مخلص البيان ص ١٢٠ .
(١٦٤) البديع ص ٣ ومخلص البيان ص ١٢٢ .

- المشبه به : جناح / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- ٤٧- قوله تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون) الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٥ .
- المشبه : الفنون والأغراض .
- المشبه به : الأودية / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- وانما خص الأودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك أو ما جرى مجراها لأن معاني الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض (١٦٥) .
- ٤٨- قوله تعالى : (وجعلنا الليل لباسا) النبا : ١٠ .
- المشبه : غطاء .
- المشبه به : اللباس / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- وواضح فضل اللباس على الغطاء من حيث الزيادة في التغطية على نحو مرسوم وتفصيل واضح . وكأن ذلك اشارة الى اضرار الظواهر المرتبطة بالنواميس الكونية .
- ٤٩- قوله تعالى : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) النحل : ١١٢ .
- المشبه : صنوف .
- المشبه به : لباس / على سبيل الاستعارة التصريحية .
- فضل اللباس على الصنوف فضل المحسوس على المعنوي .
- ٥٠- قوله تعالى : (فما بكث عليهم السماء والأرض) الدخان : ٢٩ .
- المشبه : تغيرت (أي أن وجودهم وعدمهم واحد من حيث سيورة الحياة وأسسها .
- المشبه به : بكث (١٦٦) / على سبيل الاستعارة التصريحية .

(١٦٥) المنزل السابق ج ٢ ص ٩٧ . وانظر بلخيص البيان ص ٢٥٩ .

(١٦٦) بلخيص البيان ص ٣٠٣ رجوع مخلفة للتفسير .

والبكاء يفضل التغير من حيث انه سمة حياتية فيها الاستشعار بالفقر .

٥١- قوله تعالى : (واحلل عقدة من لساني) طه : ٢٧ .
المشبه : حبسة .

المشبه به : عقدة / وهو مادي محسوس / تصريحية .
٥٢- قوله تعالى : (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله)
البقرة : ٢٣٥ .

٥٣- قوله تعالى : (الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح)
البقرة : ٢٣٧ .
المشبه : اقتران

المشبه به : عقدة / تصريحية .
والعقدة تكون للمادي المحسوس بينما الاقتران يكون للمادي
والمعنوي .

٥٤- قوله تعالى : (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) البقرة : ٦١ .
المشبه : وضعت

المشبه به : ضربت (١٦٧) / تصريحية . وفيه قوة وتثبيت .
٥٥- وقوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعا) آل عمران : ١٠٣ .
المشبه : عهد .

المشبه به : حبل / مادي محسوس / تصريحية .
٥٦- قوله تعالى : (أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) آل عمران :
١٤٤ .

المشبه : وراءكم .
المشبه به : اعقابكم (١٦٨) / مجسد / تصريحية .

(١٦٧) تلخيص البيان ص ١١٥ .
(١٦٨) نفس المصدر ص ١٢٥ .

٥٧- قوله تعالى : (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) آل عمران : ١٨٨ .

المشبهه : نجوه .

المشبهه به : مفازة (١٦٩) / مادي محسوس / تصريحية .

٥٨- قوله تعالى : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) الأنعام ٥ .

المشبهه : ما وراءهم .

المشبهه به : دابرهم / تصريحية .

ودابرة الفرس ، وجمعها دوابر ، ما يلي حافره من خلفه (١٧٠) .

٥٩- قوله تعالى : (قد شغفها حبا) يوسف : ٣٠ .

المشبهه : تغلغل اليها .

المشبهه به : شغفها / تصريحية .

أي أصاب شغافها وهو غشاء قلبها (١٧١) .

٦٠- قوله تعالى : (قالوا أضغاث أحلام) يوسف : ٤٤ .

المشبهه : أخلاط .

المشبهه به أضغاث / تصريحية .

الأضغاث جمع ضغث وهو الخليط من الحشيش المضموم بعضه

الى بعض (١٧٢) .

٦١- قوله تعالى : (لاحتكن ذريته الا قليلا) الاسراء : ٦٢ .

المشبهه : أغوينهم .

المشبهه به : احتكنهم / تصريحية .

١٦٩) نفس المصدر ص ١٢٦ .

١٧٠) تلخيص البيان ص ١٣٦ .

١٧١) نفس المصدر ص ١٧١ .

١٧٢) نفس المصدر والصفحة .

• الاحتناك من حنك قاد الدابة من حنكها (١٧٣) .

٦٢- قوله تعالى : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) الكهف : ٩٩ .

المشبه : يختلط .

المشبه به : يموج / تصريرية .

وهو أقوى في الدلالة .

٦٣- قوله تعالى : (والله جعل لكم الارض بساطا ، لتسلكوا منها سبيلا

فجاجا) نوح : ١٩ ، ٢٠ .

المشبه : ملائمة للسعي .

المشبه به : البساط (١٧٤) / تصريرية .

والبساط مادي محسوس .

٦٤- قوله تعالى : (الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) غافر :

٦٤ .

المشبه : ترويعا .

المشبه به : فراش / تصريرية .

فضل المحسوس على المعنوي .

المشبه : محكمة .

المشبه به : بناء / تصريرية .

والبناء يشتمل على الاحكام فهو فضل المحسوس على المعنوي .

٦٥- وقوله تعالى : (وجعل الشمس سراجا) نوح : ١٦ .

المشبه : ضياء .

المشبه به : سراجا / تصريرية .

(١٧٣) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

(١٧٤) نفس المصدر ص ٢٤٩ .

وهو فضل المادة على الطاقة من حيث الاحساس بها ووضوحها .
هذه أمثلة على الاستعارة من كتاب الله تعالى أتينا بها على سبيل
الاستشهاد لا الحصر لنتبين منهج القرآن الكريم في الاستعارة وفوائدها .
ومما في كلام النبي صلى الله عليه وسلم من الاستعارة :

١ - الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة .

المشبه : مقترن .

المشبه به : معقود وهو مادي محسوس / على سبيل الاستعارة
التصريحية .

الاقتران ربما كان معنويا اما العقد فمحسوس .

٢ - اكثروا من ذكر هادم اللذات (١٧٥) (يعني الموت) .

المشبه : مزيل .

المشبه به : هادم / على سبيل الاستعارة التصريحية .

والهزم مادي محسوس بينا الازالة معنوية ومحسوسة .

٣ - البلاء موكل بالمنطق .

المشبه : منوط .

المشبه به : موكل / على سبيل الاستعارة التصريحية .

والتوكل والانابة أمر يتصل بالأحياء .

٤ - ورأى عليا مع فاطمة رضي الله عنهما في بيت فرد عليهما الباب

وقال : جدع الحلال أنف الغيرة .

المشبه : الغيرة (معنوي) .

(١٧٥) وفي المثل السائر : روي عنه صلى الله عليه وسلم انه دخل يوما مصلا ف رأى أناسا
كانهم يكثرون . فقال : اما انكم لو أكثرتم من ذكر هادم اللذات لشغلتم عما
أرى . (ج ٢ ص ٩٨) .

المشبه به : أنف الغيرة (وهو مجسد) / على سبيل الاستعارة
التصريحية والمتخيلة .

ومن أقوال الامام علي رضي الله عنه من الاستعارة :

١ - « السفر ميزان القوم » .

المشبه : اختبار .

المشبه به : ميزان وهو مادي محسوس / تصريحية .

٢ - وقوله لابن عباس : أرغب راغبهم ، واحلل عقدة الخوف عنهم .

المشبه : توهم .

المشبه به : عقدة / تصريحية .

٣ - العلم قفل مفتاحه المسألة .

المشبه : غموض .

المشبه به : قفل / تصريحية . مادي محسوس .

المشبه : واسطته .

المشبه به : مفتاح / تصريحية / مادي محسوس .

٤ - الحلم والأناة توأمان ينتجهما علو الهمة .

المشبه : قرينان .

المشبه به : توأمان (مجسد) تصريحية .

٥ - وقوله لبعض الخوارج : والله ما عرفت حتى فغر الباطل فاه ،
فنجمت نجوم قرن الماعز .

أضاف للباطل فما وصفات الفم على سبيل الاستعارة المتخيلة .

٦ - وقالت عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن عمله صلى الله عليه
وسلم وعبادته فقالت : كان عمله ديمة (١٧٦) .

(١٧٦) كتاب الصناعتين ص ٢٨٥ . والكثير من الشواهد من القرآن والسنة وأقوال الصحابة
انما اعتمدت فيها كتاب الصناعتين وتدرجه قد اتبعت .

المشبه : دائم .

المشبه به : ديمة أي المطر الدائم في سكون وهو مادي محسوس
تصريحية .

الاستعارة التمثيلية :

كقول الرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه : أراك تقدم رجلا
وتؤخر أخرى (١٧٧) .

وقولهم : انك لا تجني من الشوك العنب (١٧٨) تقوله لمن لا يرجي منه
خير .

وقولهم : لا تجعل الدر في أفواه الكلاب (١٧٩) . لمن لا يقدر قيمة الامر .
وقولهم للرجل يعمل غير معمل : أراك تنفخ في غير فحم ، وتخط على
الماء (١٨٠) .

وتقول للرجل يعمل الحيلة ، حتى يميل صاحبه الى الشيء ، قد كان
يأباه ويمتنع منه : ما زال يفتل في الذروة والغارب حتى بلغ منه ما
أراد (١٨١) .

ومثله قول الشافعي رحمه الله :

أنثر درا بين سارحة الغنم وأنثر منظوما لراعية النعم

وهو تمثيل حالة جديدة بحالة سابقة معروفة ، فكأن الاستعارة
كانت استعارة صيغة قد كانت في مصطلح اللغة لتدل على أمر معين لتؤدي
معنى خاصا في حالة جديدة خاصة ثم تعود بعد ذلك الى موقعها في المصطلح
المتعارف عليه . ولذلك كانت الأمثال لا تغير لأنها أصبحت في مثل
مفردات اللغة .

(١٧٧) دلائل الاعجاز ص ٢٨٦ .

(١٧٨) أسرار البلاغة ص ١٠٦ .

(١٧٩) نفس المصدر والصفحة .

(١٨٠) دلائل الاعجاز ص ٤٧ .

(١٨١) نفس المصدر والصفحة .

الكناية :

هي لفظ أريد به لازم معناه مع جواز ارادته معه (١٨٢) . وقد أجمع الجميع - كما يقول الامام عبد القاهر - على ان الكناية أبلغ من الافصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، وأن الاستعارة مزينة وفضلا ، وإن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة (١٨٣) ولا يعني هذا ان كل كلام يشتمل على أمر من هذه الأمور قد غدا أبلغ اذ العبرة في جمال كل نص كما لو كان هذا النص حياة مستقلة يقول الامام عبد القاهر : اعلم ان من شأن هذه الاجناس أن تجري فيها الفضيلة وأن تتفاوت التفاوت الشديد (١٨٤) .

ومن أمثلته :

١ - الضاربين بكل أبيض مخدّم والطاعنين مجامع الاضغان (١٨٥)

أبيض مخدوم كناية عن موصوف وهو السيف والمخدّم سريع القطع .

٢ - قال عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط اما لنوفل أبوها واما عبد شمس وهاشم (١٨٦)

كناية عن صفة وهي طول العنق . لان كل بعيدة مهوى القرط

طويلة العنق ، وليس كل طويلة العنق بعيدة مهوى القرط ، اذا

كان الطول في عنقها يسيرا (١٨٧) .

ومثله قول امرئ القيس :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

(١٨٢) تلخيص المفتاح ص ٣٠٧ .

(١٨٣) دلائل الاعجاز ص ٤٨ .

(١٨٤) نفس المصدر ص ٥٠ .

(١٨٥) تلخيص المفتاح ص ٣٠٧ .

(١٨٦) سر الفصاحة ص ٢٧١ والمثل السائر ج ٣ ص ٦٠ - ٦١ .

(١٨٧) نفس المصدر والصفحة .

كناية عن صفة وهي ترف هذه المرأة - أي لم تنتطق لتخدم نفسها (١٨٨) .

وكذلك قوله :

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

كناية عن صفة وهي سرعة الفرس . أراد أن يصف الفرس بالسرعة ، فلم يقل أنه سريع ، وقال : قيد الأوابد وهي الوحوش . والمنجرد قصير الشعر والهيكل الضخم (١٨٩) .

٣ - قول الشاعر :

ان السباحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

فانه اراد ان يثبت اختصاص ابن الحشرج بهذه الصفات ، فترك التصريح بان يقول : انه مختص بها ، او نحوه الى الكناية ، بان جعلها في قبة مضروبة عليه (١٩٠) كأن هذه الصفات تنتسب اليه ويشتمل عليها .

ومثله قولهم : المجدين ثوبيه ، والكرم بين برديه (١٩١) .

وقول الشاعر :

أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحول (١٩٢)

وهكذا يتبين أن المتكلم يريد اثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيوميء به اليه ، ويجعله دليلا عليه . (دلائل ص ٤٥) .

(١٨٨) المصدر السابق .

(١٨٩) انظر نفس المصدر والصفحة .

(١٩٠) تلخيص المفتاح ص ٣١١ .

(١٩١) نفس المصدر ص ٣١٢ .

(١٩٢) نفس المصدر ص ٣١٣ .

ومن أمثلة الكناية في القرآن الكريم :

١ - قوله تعالى : (ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) سورة ص : ٢٣ . فكنى بذلك عن النساء ، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث (١٩٣) .

٢ - قوله تعالى : (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ، فأوقد لي يا هامان على الطين ، فاجعل لي صرحا) سورة القصص : ٣٨ . فعبر عن الآجر بالوقود على الطين (١٩٤) .

٣ - قوله تعالى : وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها) الأحزاب : ٢٧ .
والارض التي لم تطأوها كناية عن مناحج النساء وذلك من حسن الكناية ونادره (١٩٥) .

٤ - قوله تعالى : (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها) الكهف : ٤٢ .
يقلب كفيه كناية عن الحسرة والندم .

٥ - قوله تعالى : (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) الزخرف : ١٨ .
كناية عن الاناث .

٦ - قوله تعالى : (وقالوا مال هذا الرسول ياكل الطعام ويمشي في الأسواق) الفرقان : ٧ .
كناية عن الحاجة الى الخروج .

٧ - قوله تعالى : (نسأؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) البقرة : ٢٢٣ .

(١٩٣) المثل السائر ج ٣ ص ٥٥ .

(١٩٤) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦٠ .

(١٩٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٦٢ - ٦٣ .

كنى عن النكاح بالحرث .

٨ - قوله تعالى : (وقد أفضى بعضهم الى بعض) النساء : ٢١ .

كناية عن الجماع .

وفي كل الفاظ النكاح كان القرآن الكريم يمر بها مر كريما بطريق الكناية .

٩ - قوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) الاسراء : ٢٩ .

كناية عن المنع والاسراف على الترتيب .

ومن الكناية في أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكنى ويوري :

١ - قوله لأزواجه : « أطولكن يدا أسرعن لحوقا بي » فلما مات صلوات الله وسلامه عليه جعلن يطاولن بين أيديهن ، حتى ينظرن أيتنه أطول يدا ، ثم كانت زينب أسرعن لحوقا به ، وكانت كثيرة الصدقة ، فعلمن حينئذ انه لم يرد الجارحة ، وانما أراد الصدقة (١٩٦) .

٢ - قوله صلى الله عليه وسلم : « رويدك سوقك بالقوارير » يريد بذلك النساء ، فكنى عنهن بالقوارير ، وذلك انه في بعض أسفاره وغلाम أسود اسمه أنجشة يحدو ، فقال له : يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير (١٩٧) ويستهجى بعض المعاصرين من الحيارى وجه الشبه في هذه الكناية اللطيفة اذ ان النساء في أحبيتهن على هواجهن وقت السفر كقوارير الطيب الملبسة بالقماش والخرز وغيره من أدوات الزينة خيفة عليها من الانكسار . والمعنى ان اولاء لا طاقة بهن على تحمل مشاق السفر المضمني ووعثائه .

(١٩٦) المثل السائر ج ١ ص ٨١ والتفتازاني على التلخيص ص ٢٩٠ .

(١٩٧) المثل السائر ج ٣ ص ٦٤ .

ومن كنايات العرب :

١ - ما ذكره جاز الله الزمخشري بان الأنمارية فاطمة بنت الخرشب
سئلت عن بنيتها أيهم أفضل . فقالت عمارة لا بل فلان ، لا بل فلان
ثم قالت : تكلتهم ان كنت أعلم أيهم أفضل . هم كالحلقة المفرغة
لا يدرى أين طرفاها (أي هم متناسبون في الشرف) (١٩٨) والحلقة
المفرغة متناسبة الأجزاء يمتنع تعيين بعضها طرفا وبعضها وسطا
لكونها مفرغة مصمتة الجوانب كالدائرة) .

٢ - قول القبعثري للحجاج وقد قال له متوعدا :

لأحملنك على الأدهم . قال : مثل الأمير يحمل على الأدهم والاشهب .
أراد الحجاج بالأدهم : القيد .
والقبعثري : أراد الفرس الأسود والأبيض (١٩٩) .

المجاز :

هو دلالة اللفظ على غير ما وضع له في أصل اللغة والمجاز أعم من
حيث ان كل استعارة مجاز ، وليس كل مجاز استعارة (٢٠٠) .
وهو ضربان : مرسل وعقلي :

أما المرسل : فهو المجاز الذي يستعمل لعلاقة غير المشابهة ومن
أمثله :

١ - قوله تعالى : (والسماء بنيناها بإيد وانا لموسعون) الذاريات : ٤٧ .

والأيدي هي القوة وهي سبب في القوة فالمجاز علاقته السببية .

٢ - قوله تعالى : (وينزل لكم من السماء رزقا) غافر : ١٣ .

الرزق مسبب عن المطر الذي ينزل من السماء فالعلاقة السببية .

(١٩٨) التفتازاني على التلخيص ص ٢٥١ .

(١٩٩) تلخيص المفتاح ص ٩٠ والتفتازاني على التلخيص ذات الصفحة .

(٢٠٠) دلائل الإعجاز ص ٣٠١ والمثل السائر ج ٢ ص ٩٣ .

ومثله قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيته وان كانوا غضاباً (٢٠١)

٣ - إذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم (من وصية عمر الى سعد رضي الله عنهما) .

العيون هي الجواسيس والعين للجاسوس جزء منه على أهمية قصوى . فالعلاقة الجزئية .

٤ - قال تعالى : (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت) البقرة : ١٩ .

الاصبع لا تدخل كلها في الأذن فالعلاقة الكلية .

٥ - قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم) النساء : ٢ .

اعتبار ما كانوا يتامى / اعتبار ما كان .

٦ - قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : (انك ان تذرهم يضلوا

عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا) نوح : ٢٧ .

المولود الفاجر أريد به الرجل الفاجر والعلاقة اعتبار ما يكون .

٧ - قوله تعالى : (واسأل القرية) يوسف : ٢٨ .

والمقصود أهلها فالعلاقة المحلية .

٨ - قوله تعالى : (وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله) آل

عمران : ١٠٧ .

الرحمة معنى من المعاني أطلقت فيه الحال وأريد المحل . فعلاقته الحالية .

ومن أمثلته في القرآن الكريم :

١ - قوله تعالى : (فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن) طه : ٤٠ .

- ٢ - قوله تعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) البقرة : ١٨٥ .
أي هلاله .
- ٣ - قوله تعالى : (واركعوا مع الراكعين) البقرة : ٤٣ والركعة جزء من الصلاة .
- ٤ - قوله تعالى : (كتب عليكم القصاص في القتلى) البقرة : ١٧٨ .
- ٥ - قوله تعالى على لسان صاحب يوسف في السجن : (اني أراني أعصر خمرا) يوسف ٣٦ .
- ٦ - قوله تعالى : (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله) الطلاق : ٨ .
- ٧ - قوله تعالى : (فليدع ناديه) العلق : ١٧ .

المجاز العقلي :

هو اسناد اللفظ الى ملابس له بتأول (٢٠٢) . وله ملابس شتى يلبس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والسبب واسناده الى الفاعل او المفعول به اذا كان مبنيا له حقيقة ، والى غيرهما للملابسة مجاز (٢٠٣) .

أمثلة :

- ١ - قال تعالى على لسان فرعون : (يا هامان ابن لي صرحا) غافر : ٣٦ .
- أسند البناء الى هامان وهامان سبب فيه لأنه أمر الفعلة .
ومثله قولهم : هزم الأمير الجند (٢٠٤) .
- ٢ - نهاره صائم - أسند الصوم الى النهار لانه زمان الصوم (٢٠٥) .

(٢٠٢) تلخيص المفتاح ص ٣٧ .
(٢٠٣) نفس المصدر والصفحة .
(٢٠٤) نفس المصدر ص ٤١ .
(٢٠٥) التفتازاني على التلخيص ص ٣٧ .

- ٣ - نهر جار - أسند الجريان الى النهر لانه مكان الماء (٢٠٦) .
- ٤ - جد جده - أسند الفعل الى المصدر ولم يسند الى فاعله (٢٠٧) .
- ٥ - عيشة راضية - بني للفاعل واسند الى المفعول به اذ العيشة مرضية (٢٠٨) استعمل اسم الفاعل بدل اسم المفعول .
- ٦ - سيل مفعم : بني للمفعول واسند الى الفاعل لان السيل هو الذي يفعم أي يملأ من أفعمت الاناء اذا ملأته (٢٠٩) .
- استعمل اسم المفعول بدل اسم الفاعل .
- ومثله قوله تعالى : (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) الاسراء : ٤٥ .
- اسم المفعول بدل سائر وهو اسم الفاعل .
- ومثله قوله تعالى : (انه كان وعده مأتيا) مريم : ٦١ .
- اسم المفعول بدل اسم الفاعل وهو آت .

(٢٠٦) نفس المصدر والصفحة .

(٢٠٧) نفس المصدر والصفحة .

(٢٠٨) نفس المصدر والصفحة .

(٢٠٩) نفس المصدر والصفحة .

ثبت المصادر والتفاسير والمراجع

١ - المصادر :

- ١ - الآمدي أبو القاسم : الموازنة (دار المعارف بمصر ١٩٦١-١٩٦٥م) .
- ٢ - ابن الأثير ، ضياء الدين : المثل السائر (مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٩م) .
- ٣ - ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة (لجنة البيان العربي ، مصر ، ١٩٥٧م) .
- ٤ - ابن الزمלקاني : التبيان في علم البيان (ط ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٤م) .
- ٥ - ابن سلام ، محمد : طبقات فحول الشعراء (مطبعة المدني مصر ١٩٧٤م) .
- ٦ - ابن قتيبة ، أبو محمد : أدب الكاتب (المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦هـ) .
- ٧ - ابن المعتز ، عبد الله : البديع (لوزاك وشركاه لندن ١٩٣٥م) .
- ٨ - ابن نايقا البغدادي : الجمان في تشبيهات القرآن (ط المطبعة العصرية بالكويت ١٩٦٨م) .
- ٩ - ابن هشام ، عبد الملك : السيرة النبوية (مطبعة البابي الحلبي مصر ١٩٦٨م) .
- ١٠ - ابن وهب ، اسحق : البرهان في وجوه البيان (ط مطبعة وزارة المعارف / بغداد ١٩٦٧م) .
- ١١ - البلاذري ، احمد بن يحيى : فتوح البلدان (مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩م) .
- ١٢ - البلخي ، أبو زيد : البدء والتاريخ (باريس ١٨٩٩م) .
- ١٣ - التفتازاني ، مسعود بن عمر : مختصر المعاني (ط مطبعة البابي الحلبي بمصر) .
- ١٤ - الجاحظ ، ابو عثمان : البيان والتبيين (ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٨م) .
- ١٥ - الجاحظ ، ابو عثمان : الحيوان (مطبعة الحلبي بمصر ١٩٣٨ - ١٩٤٥م) .

- ١٦- الجرجاني ، الامام عبد القاهر : **أسرار البلاغة** (مطبعة وزارة المعارف / استانبول ١٩٥٤م) .
- ١٧- الجرجاني ، الامام عبد القاهر : **دلائل الإعجاز** (ط ٢ مكتبة القاهرة / القاهرة ١٩٦١م) .
- ١٨- الخفاجي ، محمد بن سنان : **سر الفصاحة** (مطبعة صبيح واولاده / القاهرة ١٩٥٣م) .
- ١٩- الرازي ، فخر الدين : **نهاية الأيجاز** (مطبعة الآداب والمؤيد القاهرة ١٣١٧هـ) .
- ٢٠- السجستاني ، عبد الله : **كتاب المصاحف** (ط ١ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٦م) .
- ٢١- الشريف الرضي : **تلخيص البيان في مجازات القرآن** (ط ٢ ، مطبعة البابي الحلبي / القاهرة ١٩٥٥م) .
- ٢٢- شرح العقيدة الطحاوية (من منشورات المكتب الاسلامي بيروت ١٩٧٣م) .
- ٢٣- الطبري ، أبو جعفر : **تاريخ الرسل والملوك** (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠م) .
- ٢٤- العسكري ، أبو هلال : **كتاب الصنائع** (ط ٢ ، مطبعة الحلبي وشركاه ١٩٧١م) .
- ٢٥- القزويني ، محمد بن عبد الرحمن الخطيب : **تلخيص المفتاح** (ط ١ مطبعة الحلبي مصر ١٩٣٨م) .
- ٢٦- القلقشندي ، أبو العباس : **صبح الاعشى** (مطابع كوستاتوماس مصر ١٩٦٣م) .
- ٢٧- القيرواني ، ابن رشيقي : **العمدة** (ط ٣ ، ١٩٦٣-١٩٦٤م) .
- ٢٨- ياقوت الحموي : **معجم الأدباء** (مطبوعات دار المأمون) .
- ٢٩- اليعقوبي ، احمد بن يعقوب : **تاريخ اليعقوبي** (دار صادر / دار بيروت ١٩٦٠م) .

ب - التفاسير :

- ١ - جامع البيان لابن جرير الطبري .
- ٢ - الكشف للزمخشري .

- ٣ - تفسير الخازن .
- ٤ - تفسير النسفي .
- ٥ - مفاتيح الغيب للرازي .
- ٦ - أحكام القرطبي .
- ٧ - تفسير الطبرسي .
- ٨ - تفسير الطباطبائي .
- ٩ - تفسير ابن كثير .
- ١٠ - تفسير البغوي .
- ١١ - تفسير البيضاوي .
- ١٢ - روح المعاني للألوسي .
- ١٣ - الجواهر جوهرى طنطاوي .
- ١٤ - تفسير الجلالين .
- ١٥ - تفسير المنار .
- ١٦ - في ظلال القرآن لسيد قطب .

ج - المراجع العربية والترجمة :

- ١ - أمين الخولي : فن القول (دار الفكر العربي / القاهرة ١٩٤٧ م) .
- ٢ - توماس أرنولد : الدعوة الإسلامية (ترجمة واجتزاء محمد خالد حسين : دين الناس كافة ، من منشورات وزارة الاوقاف بعمان ١٩٧٢ م) .
- ٣ - د. خالص جلبي كنجو : الطب في محراب الايمان .
- ٤ - د. زكريا ابراهيم : مشكلة الفلسفة (دار القلم ، مصر ١٩٦٢ م) .
- ٥ - سيد قطب : التصوير الفني في القرآن (بدون دار النشر أو السنة) .
- ٦ - د. عائشة عبد الرحمن : التفسير البياني للقرآن الكريم (ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م) .
- ٧ - عبد الرزاق نوفل : الاعجاز العددي للقرآن الكريم (دار الشعب القاهرة ١٩٧٥ م) .
- ٨ - عبد الله التل : جنود البلاء (ط ١ دار الارشاد بيروت ١٩٧١ م) .
- ٩ - د. عدنان الخطيب : المعجم العربي (معهد البحوث والدراسات العربية / القاهرة ١٩٦٧ م) .

- ١٠- علي الجارم ومصطفى أمين : **البلاغة الواضحة** (ط ٢١ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م) .
- ١١- مالك بن نبي : **الظاهرة القرآنية** .
- ١٢- محمد ابو زهرة : **المعجزة الكبرى** (دار الحمامي للطباعة ١٩٧٠ م) .
- ١٣- محمد علي أبو حمدة : **أبو القاسم الأملّي وكتاب الموازنة** (دار العربية / بيروت ١٩٦٩ م) .
- ١٤- محمد علي أبو حمدة : **الفكر الإسلامي** (جمعية عمال المطابع التعاونية / عمان ١٩٧٤ م) .
- ١٥- محمد علي أبو حمدة : **في النقد الأدبي التطبيقي** (جمعية عمال المطابع التعاونية / عمان ١٩٧٦ م) .
- ١٦- د. مصطفى محمود : **القرآن / محاولة لفهم عصري** (دار الشروق بيروت ١٩٧٠ م) .
- ١٧- د. ناصر الدين الأسد : **مصادر الشعر الجاهلي** (ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م) .

د - المراجع الأجنبية :

1. Diller, Karl C. : Generative Grammar (Rowly. Massachusetts, Newbury House Publishers, U. S. A. 1971) .
2. Moore, Robert : Effective Writing (4 th. edition, Holt, Rinehart and Winston Inc. New York, U. S. A. , 1971)
3. Morris, Alton and Others : The Modern Essay (2 nd. edition, Harcourt. Brace and World Inc. U. S. A: : 1968 :
4. Scharbach, Alexander and Singleton, Ralph : The Lively Rhetoric (2 nd . edition. Holt, Rinehart and Winston Inc. New York, 1972)

ه - النوريات والمجلات والصحف :

- ١ - مجلة البلاغ عدد ٣٧٦ تاريخ ١٧/١٠/١٩٧٦ م .
- ٢ - مجلة العربي عدد ٢١٠ حزيران ١٩٧٧ م .
- ٣ - كتاب الهلال عدد ٤٢ .
- ٤ - مجلة الوعي الإسلامي عدد ١٥ حزيران ١٩٧٧ م .
- ٥ - الرأي عدد ٢٩/٥/١٩٧٦ م .

الفهرس

الصفحة

الباب الاول

٣	البيان واللغة
٥	البيان
١٠	عالمية البيان
١٢	النظام اللغوي

الباب الثاني

١٨	الحجة بالقرآن الكريم
----	----------------------

الباب الثالث

٣٠	الاعجاز البياني
٣٢	أمية القراءة والكتابة
٣٧	جمع القرآن الكريم

الباب الرابع

٤٢	العربية والبيان
٤٣	دور الشعر في الوقوف على أسرار الاعجاز

الباب الخامس

٤٧	أساليب البيان
٤٧	تنوير
٤٨	مناهج البحث

الصفحة

٥٢	التشبيه
٥٦	أغراض التشبيه
٦٨	التشبيه في القرآن الكريم
٨٧	التشبيه من حيث هو منرد ومركب
٩١	تشبيه التمثيل في القرآن الكريم
١١٨	التشبيه الضمني
١٢٤	الغموض الفني
١٢٥	التشبيه المقلوب
١٢٧	الاستعارة
١٣٥	نماذج من الاستعارة في القرآن الكريم
١٥٢	نماذج من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم
١٥٣	من أقوال الإمام علي (رضي الله عنه)
١٥٤	الاستعارة التمثيلية
١٥٥	الكناية
١٥٩	المجاز
١٥٩	المرسل
١٦١	العقلي
١٦٣	ثبت المصادر والمراجع

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com